

تَفْسِيرُ الْمُرَاغِي

تَأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقاً

الجزء السادس والعشرون

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

حقوق الطبع محفوظة

الجزء السادس والعشرون

سورة الأحقاف

هي مكية إلا ثلاث آيات : ١٠ ، ١٥ ، ٣٥ فمدنية .

وعدة آياتها خمس وثلاثون ، نزلت بعد الجاثية .

ووجه اتصالها بما قبلها — أنه تعالى ختم السورة السالفة بالتوحيد وذم أهل

الشرك وتوعدهم عليه ، وافتتح هذه بالتوحيد وتوبيخ المشركين على شركهم أيضا .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

حَمَّ (١) تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (٢) مَا خَلَقْنَا

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا

عَمَّا أَنْزَرْنَا مُعْرِضُونَ (٣) قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي

مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ؟ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ، انْتَوَيْتُمْ بِكِتَابِ

مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَنْارَةً مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ
يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنِ دُعَائِهِمْ
غَافِلُونَ؟ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ
كَافِرِينَ (٦) .

شرح المفردات

أجل مسمى : هو يوم القيامة ، أنذروا : أى خوفوا ، معرضون : أى مولون
لاهون ، تدعون : أى تعبدون ، شرك : أى نصيب ، أنارة : أى بقية ، ومثلها الأثرة
(بالتحريك) يقال (سمنت الإبل على أنارة) أى بقية شحم كان قبل ذلك ، حشر:
أى جمع ، كافرين : أى مكذابين .

المعنى الجملى

بدأ سبحانه السورة بإثبات أن هذا القرآن من عند الله، لامن عند محمد كما تدعون
ثم ذكر أن خلق السموات والأرض مصحوب بالحق قائم بالعدل والنظام ، ومن
النظام أن تكون الآجال مقدرة معلومة لكل شيء ، إذ لا شيء فى الدنيا بدأم ،
ولا بد من يوم يجتمع الناس فيه للحساب ، حتى لا يستوى المحسن والمسيء ، ولكن
الذين كفروا أعرضوا عن إنذار الكتاب ولم يفكروا فيما شاهدوا فى العالم من النظام
والحكمة ، فلا هم بسامع الوحي متعظون ، ولا هم بالنظر فى العالم المشاهد يعتبرون ؛
ثم نعى على المشركين حال آلهتهم وأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول لهم :
أخبروني ماذا خلق آلهتكم من الأرض ، أم لهم شركة فى خلق السموات حتى
يستحقون العبادة ؟ فإن كان لهم ماتدعون فهاتوا دليلا على هذا الشرك المدعى بكتاب
عوحى به من قبل القرآن أو ببقية من علوم الأولين ، وكيف خطر على بالسك أن

تعبدها وهي لاستجيب لكم دعاء إلى يوم القيامة وهي غافلة عنكم، وفي الدار الآخرة تكون لكم أعداء وتجدد عبادتكم لها .

الإيضاح

(حَمَّ) الكلام في مثلها قد تقدم من قبل .

(تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم) اعلم أن نظم أول هذه السورة كنظم أول سورة الجاثية وقد تقدم إيضاحه وتفسيره .

(ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى) أى ما خلقناها إلا خلقا ملتبسا بالعدل ، وبتقدير أجل مسمى لكل مخلوق ، إليه ينتهى بقاؤه في هذه الحياة الدنيا ، وهذا يستدعى أن يكون خلقه لحكمة وغاية ، وأن يكون هناك يوم معلوم للحساب والجزاء ، لثلاث يتساوى من أحسن في الدار الأولى ومن أساء فيها ، ومن أطاع ربه واتبع أوامره ونواهيه ، ومن دسنى نفسه ، وركب رأسه ، واتبع شيطانه وهواه ، وسلك سبل الغواية فلم يترك منها طريقا إلا سلكه ، ولا بابا إلا ولجّه .

ثم بين غفلة المشركين وإعراضهم عما أنذروا به فقال :

(والذين كفروا عما أنذروا معرضون) أى مع مانصبنا من الأدلة ، وأرسلنا من الرسل ، وأنزلنا من الكتب — بقر هؤلاء الكفار معرضين عنه ، غير ملتفتين إليه ، فلا هم بما أنزلنا من الكتب اتعظوا ، ولا بما شاهدوا من أدلة الكون اعتبروا ، وأتى لهم ذلك ؟ فهم صم بكم عمى لا يعقلون .

وبعد أن أثبت لنفسه الألوهية ، وأنه رحيم عادل ، وأثبت البعث والجزاء يوم القيامة ، ردّ على عبدة الأصنام فقال :

(قل أرايتم ماتدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات) أى قل لهم أيها الرسول : أخبروني عن حال آلهتكم بعد التأمل

في خلق السموات والأرض وما بينهما والنظام القائم فيها المبني على الحكمة ودقة الصنع والإبداع في التكوين : هل تعقلون لهم مدخلا في خلق جزء من هذا العالم السفلي ، فيستحقوا لأجله العبادة ؟ ولو كان لهم ذلك لظهر التفاوت في هذا النظام ، والمشاهد أنه على حال واحدة يستمد أدناه من أعلاه ، ويرتبط بعضه ببعض ، وكل فرد في الأرض مخدوم بجميع الأفراد فيها ، أم هل تظنون أن لهم شركة في خالق العالم العلوي شمس وأقماره ، كواكبه ونجومه ، سياراتها وثوابتها .

وقصارى ذلك — نفي استحقاق آلهتهم للمعبودية على أتم وجه ، فقد نفي أن لها دخلا في خلق شيء من أجزاء العالم السفلي استقلالا ، ونفي ثانيا أن لها دخلا على سبيل الشركة في خلق شيء من أجزاء العالم العلوي ، ونفي ذلك يستلزم نفي استحقاق المعبودية أيضا .

وتخصيص الشركة في النظم الجليل بقوله سبحانه « فِي السَّمَوَاتِ » مع أنه لا شركة فيها ولا في الأرض أيضا — لأن الغرض إزمامهم بما هو مسلم لهم ، ظاهر لكل أحد ، والشركة في الحوادث السفلية ليست كذلك ، نملكهم وإيجادهم بعضها على حسب الصورة الظاهرة .

وبعد أن بكتهم وعجزهم عن الإتيان بسند عقلي ، عجزهم وبكتهم عن الإتيان بسند تقلي فقال :

(اتوني بكتاب من قبل هذا أو إثارة من علم إن كنتم صادقين) أى إن كان ما تقولونه حقا فائتوني أيها القوم بكتاب من قبل هذا الكتاب كالتوراة والإنجيل يشهد بصحة ما تدعون لآلهتكم ، أو ببقية بقيت عندهم من علم الأولين المفكرين في خلق السموات والأرض ترشد إلى استحقاق الأصنام والأوثان للعبادة . وتدل على صحة المسلك الذي سلكتموه .

والخلاصة — إن الدليل : إما وحى من الله ، أو بقية من كلام الأوائل ، وإما

إرشاد من العقل ، فإن كان الأول فأين الكتاب الذى يدل على أنهم شركاء ؟
وإن كان الثانى فأين هو ؟

وبعد أن أبطل شركة الأصنام فى الخلق بعدم قدرتها على ذلك — أتبعه إبطاله
بعدم علمها بالعبادة فقال :

(ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن
دعائهم غافلون) أى لا أضل ممن يعبد من دون الله أصناما ويتخذهم آلهة ، وهم إذا
دعوا لا يسمعون ولا يجيبون إلى يوم القيامة ؛ أى لا يجيبون أبدا ماداموا فى الدنيا ،
إذ هم فى غفلة عن دعائهم ، لأنهم أحجار ، فهم صم بكم لا يسمعون ولا يتكلمون .
وما أنكى هذا التوبيخ وما أمضّ آله هؤلاء المشركين على سوء رأيهم وقبح
اختيارهم فى عبادتهم ما لا يعقل شيئا ولا يفهم ، وتركهم عبادة من بيده جميع نعمهم ،
ومن به إغاثتهم حين تنزل بهم الجوائح والمصائب .
وبعد أن أبان أنهم لا ينفعونهم فى الدنيا ولا يستجيبون لهم دعاء — أبان حالهم
فى الآخرة فقال :

(وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) أى وإذا جمع
الناس لموقف الحساب كانت هذه الآلهة التى يعبدونها فى الدنيا أعداء لهم ، إذ يتبرءون
منهم ، وكانوا بعبادتهم كافرين ، فهم يقولون : ما أمرناهم بعبادتنا ولا شعرنا بهم ،
تبرأنا إليك ربنا منها .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا .
كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » وقوله حكاية عن إبراهيم
عليه السلام : « قَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا مَوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ
الدُّنْيَا ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا وَمَأْوَاكُمُ
النَّارُ وَمَأْوَاكُمُ مِنَ النَّاصِرِينَ » .

وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ
 هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ (٧) أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنْ اقْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي
 مِنْ اللَّهِ شَيْئًا هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ، كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ
 وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٨) قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي
 مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ، إِنْ أَتَّبَعُ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ ، وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ
 مُّبِينٌ (٩) .

شرح المفردات

المراد بالحق آيات القرآن ، افتراه : كذب عليه عمدا ، فلا تملكون لى من الله
 شيئا : أى لاتمنون عنى من الله شيئا إن أراد عقابى ، تفيضون فيه : أى تخوضون
 فيه من تكذيب القرءان ، يقال أفاض القوم فى الحديث : أى اندفعوا فيه ، والبدع
 والبديع من كل شىء : المبتدع المحدث دون سابقه له .

المعنى الجملى

بعد أن تكلم فى تقرير التوحيد ونفى الأضداد والأنداد — أعقب هذا بالكلام
 فى النبوة وبين أنه كلما تلا عليهم الرسول شيئا من القرآن قالوا إنه سحر ، بل زادوا
 فى الشناعة وقالوا : إنه مفترى ، فرد عليهم بأنه لو افتراه على الله فمن يمنعه من عقابه
 لو عاجله به ؟ وهو العليم بما تندفعون فيه من الطعن فى نبوتى ، ويشهد لى بالصدق
 والبلاغ ، وعليكم بالكذب والجحود .

ثم أمر رسوله أن يقول لهم : إني لست بأول الرسل حتى تنكروا دعائى لكم
 إلى التوحيد ، ونهى لكم عن عبادة الأصنام ، وما أدرى مايفعل بى فى الدنيا ؟

أموت أم أقتل كما قتل الأنبياء قبلى ، ولا ما يفعل بكم ، أترمّون بالحجارة من السماء أم تخسف بكم الأرض ، أم يفعل بكم غير ذلك مما عمل مع سائر المكذبين للرسل ؟ وإني لا أعمل عملا ولا أقول قولاً إلا بوحي من ربى ، وما أنا إلا نذير ، لا أستطيع أن آتى بالمعجزات والأخبار الغيبية ، فالقادر على ذلك هو الله تعالى .

الإيضاح

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين كذبوا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين) أي وإذا تتلى على هؤلاء المشركين حججنا التي أودعناها كتابنا الذي أنزلناه عليك قالوا : هذا خداع وتمويه يفعل فعل السحر في قلب من سمعه . ثم انتقل من هذه المقالة الشنعاء إلى ما هو أشنع منها فقال : (أم يقولون افتراه) أي دع هذا واسمع القول المنكر العجيب : إنهم يقولون إن محمداً افتراه على الله عمداً واختلقه عليه اختلاقاً . وقد أمر الله رسوله أن يبطل شبهتهم بقوله :

(قل إن افتريته فلا تملكون لى من الله شيئاً) أي قل لهم : لو كذبت على الله وزعمت أنه أرسلنى إليكم ولم يكن الأمر كذلك لعاقبنى أشد العقاب ولم يقدر أحد من أهل الأرض لأنتم ولا غيركم أن يجيرنى منه ، فكيف أقدم على هذه الفرية وأعرض نفسى لعقابه ، فالملوك لا يتركون من كذب عليهم دون أن ينتقموا منه ، فما بالكم بمن يتعمد الكذب على الله فى الرسالة ، وهى الجامعة لأمر عظيمة ، ففيها الإخبار عن تكليف الناس بما يصلح شأنهم فى دينهم وديانهم .

ونحو الآية قوله : « قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ، وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُتَسَدِّدًا إِلَّا بِلَاغًا مِنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ » وقوله : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَمْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ » .

ثم علل ما أفاده الكلام من وجوب الانتقام منهم بقوله :

(هو أعلم بما تفيضون فيه) أى هو أعلم من كل أحد بما تخوضون فيه من التكذيب بالقرآن والظعن في آياته وتسميته سحرا تارة وفرية أخرى .

ثم أكد صدق ما يقول بنسبة علم ذلك إلى الله فقال :

(كفى به شهيدا بيني وبينكم) فهو يشهد لى بالصدق في البلاغ ، ويشهد عليكم بالكذب والجحود .

ولا يخفى ما في هذا من الوعيد الشديد على إفاضتهم في الظعن في الآيات .

ثم فتح لهم باب الرحمة بعد الإنذار السابق لعالمهم يتوبون ويشوبون إلى الحق فقال :

(وهو الغفور الرحيم) أى ومع كل ما صدر منكم من تلك المطاعن الشنعاء إن أنتم تبتتم وأنتم إلى ربكم وضح عزمكم على الرجوع عما أنتم فيه ، تاب عليكم وعفا عنكم وغفر لكم ورحمكم .

وبعد أن حكى عنهم ظعنهم في القرآن — أمر رسوله أن يرد عليهم مقترحاتهم العجيبة ، وهى طلبهم من الرسول صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بمعجزات على حسب ما يريدون ويشتهون ، وكلها تدور حول الإخبار بشئون الغيب فقال :

(قل ما كنت بدعاً من الرسل) أى قل لهم : لست بأول رسول بلغ عن ربه ، بل قد جاءت رسل من قبلى ، فما أنا بالفذ الذى لم يمهده نظير حتى تستكرونى وتستبعدون رسالتى إليكم ، وما أنا بالذى يستطيع أن يأتى بالمعجزات متى شاء ، بل ذلك بإذنه تعالى وتحت قبضته وسلطانه ، وليس لى من الأمر شئ ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(وما أدرى ما يفعل بى ولا بكم) أى ولا أعلم ما يفعل بى في الدنيا ، أأخرج من بلدى كما أخرجت أنبياء من قبلى ، أم أقتل كما قتل منهم من قتل ؟ ولا ما يفعل

بكم أيها المكذبون ، أترمّون بججارة من السماء أم تُخسّف بكم الأرض ؟ كل هذا علمه عند ربي .

وفي صحيح البخارى وغيره من حديث أمّ العلاء أنها قالت : « لما مات عثمان ابن مظعون رضى الله عنه ، قلت : رحمة الله عليك يا أبا السائب ، لقد أكرمك الله تعالى ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما يدريك أن الله أكرمه ؟ أما هو فقد جاءه اليقين من ربه ، وإني لأرجو له الخير ، والله ما أدري - وأنا رسول الله - ما يفعل بي ولا بكم ، قالت أمّ العلاء فوالله ما أزكى بعده أبداً » .

وفي رواية الطبرانى وابن مردويه عن ابن عباس «أنه لما ماتت امرأته أو امرأة: هنيئاً لك ابن مظعون الجنة ، فنظر إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر مغضب وقال : وما يدريك ؟ والله إني لرسول الله ، وما أدري ما يفعل الله بي ، فقالت : يا رسول الله صاحبك وفارسك وأنت أعلم ، فقال : أرجو له رحمة ربه تعالى وأحاف عليه ذنبه » .

ومن هذا يعلم أن ما ينسب إلى بعض الأولياء من العلم بشئون الغيب ، فهو فرية على الله ورسوله ، وكفى بما سلف ردّا عليهم .

ثم أكد ما سلف وقرره بقوله :

(إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ) أى ما أتبع إلا القرآن ولا أبتدع شيئاً من عندى .

ثم زاد الأمر توكيداً فقال :

(وما أنا إلا نذير مبين) أى وما أنا إلا نذير أنذركم عقاب الله ، وأخوفكم

عذابه ، وآتيكم بالشواهد الواضحة على صدق رسائى ، ولست أقدر على شيء من

الأعمال الخارجة عن قدرة البشر .

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنَ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ
 بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى مِثْلِهِ فَأَمَنْ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لَإِيْهْدِي الْقَوْمَ
 الظَّالِمِينَ (١٠) وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا
 إِلَيْهِ ، وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِنْكَ قَدِيمٌ (١١) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ
 مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً ، وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِّسَانَا عَرَبِيًّا لِيُنذِرَ الَّذِينَ
 ظَلَمُوا وَيُبَشِّرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢) إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا
 فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (١٣) أُولَئِكَ أَنْصَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ
 فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٤)

المعنى الجملى

لا يزال الكلام موصولاً بسابقه ، فبعد أن نعى عليهم استهزاءهم بكتابه وقولهم
 فيه : إنه سحر مفترى ، ورد الرسول عليهم بأنه ليس بأول رسول حتى يستنكرون
 نبوته ويطلبون منه مالا قبل له به من المعجزات التي أمرها بيد الله لا بيده — أردف
 هذا بأمر رسوله أن يقول لهم : ما ظنكم أن الله صانع بكم إن كان هذا الكتاب
 الذى جئتكم به قد أنزله الله على لأبلغكموه فكفرتكم به وكذبتموه ؟ وقد شهد شاهد
 من بنى إسرائيل الواقفين على أسرار الوحي بما أوتوا من التوراة على مثل ما قلت ،
 فأمن واستكبرتم ؟ ثم حكى عنهم شبهة أخرى بشأن إيمان من آمن منهم من الفقراء
 كعمار وصهيب وابن مسعود فقالوا : لو كان هذا الدين خيرا ما سبقنا إليه هؤلاء ،
 ثم ذكر أنهم حين لم يهتدوا به قالوا : إنه من أساطير الأولين ، ثم ذكر أن مما يدل
 على صدق القرآن أن التوراة وهى الإمام المقتدى به ، بشرت بمقدم محمد صلى الله

عليه وسلم فاقبلوا حكمها في أنه رسول حقا من عند الله ، ثم أعقب هذا ببيان أن من آمنوا بالله وعموا صالحا لا يخافون مكرها ولا يحزنون لقوات محبوب ، وأولئك هم أهل الجنة جزاء ما عملوا من عمل صالح وما أجبوا إلى ربهم وانقادوا لأمره ونهيه.

الإيضاح

(قل أرايتم إن كان من عند الله وكفرتم به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم) أى قل لهم : أخبروني إن ثبت أن القرآن من عند الله لعجز الخلق عن معارضته ، لأنه سحر ولا مفترى كما تزعمون ، ثم كذبتم به وشهد أعلم بني إسرائيل بكونه من عند الله فآمن واستكبرتم — أفلمستم تكونون أضل الناس وأظلمهم؟

والخلاصة — أخبروني إن اجتمع كون القرآن من عند الله مع كفركم به ، وشهادة منصف من بني إسرائيل عارف بالتوراة على مثل ما قلت فآمن به مع استكباركم — أفلا تكونون ظالمين لأنفسكم؟

وهذا الشاهد هو عبد الله بن سلام — فقد أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن سعد بن أبي وقاص قال : « ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على وجه الأرض : إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام ، وفيه نزلت : (وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ) » .

وأخرج الترمذى وابن جرير وابن مردويه عن عبد الله بن سلام قال : نزلت في آيات من كتاب الله ، نزلت في « وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِ » . ونزل في : « قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » .

ثم ذكر أن في استكبارهم عن الإيمان هو ظلمهم لأنفسهم وكفرهم بآيات ربهم فقال :

(إن الله لا يهدي القوم الظالمين) أى إن الله لا يوفق لإصابة الحق وهدى

الصراط المستقيم من ظلموا أنفسهم باستحقاقهم سخط الله لكفرهم به بعد قيام الحجّة الظاهرة عليهم .

عن عوف بن مالك الأشجعي قال : « انطلق النبي صلى الله عليه وسلم وأنا معه حتى دخلنا كنيسة اليهود يوم عيدهم ، فكرهوا دخولنا عليهم ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا معشر اليهود أروني اثني عشر رجلاً منكم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، يحط الله عن كل يهودي تحت أديم السماء الغضب الذي عليه ، فسكتوا فما أجابه منهم أحد ، ثم ردّ عليهم فلم يجبه أحد ثلاثاً ، فقال : أبيتُم ، فوالله لأنا الحاشر وأنا العاقب وأنا المقفى ، آمنتم أو كذبتُم ، ثم انصرف وأنا معه حتى كدنا نخرج ، فإذا رجل من خلفه فقال : كما أنت يا محمد فأقبل ، فقال ذلك الرجل : أى رجل تعلمونى فيكم يا معشر اليهود ، فقالوا : والله ما نعلم فىنا رجلاً أعلم بكتاب الله ولا أفضه منك ولا من أبيك ولا من جدك ، فقال فإني أشهد بالله أنه النبي الذي تجدونه مكتوباً في التوراة والإنجيل ، قالوا كذبت ، ثم ردوا عليه وقالوا شراً ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كذبتُم لن يقبل منكم قولسكم ، فخرجنا ونحن ثلاثة : رسول الله وأنا وعبد الله بن سلام فأنزل الله : (قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِلَى قَوْلِهِ — إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ) .

أخرجه أبو يعلى وابن جرير والطبراني والحاكم وصححه السيوطي .

ثم حكى نوعاً آخر من أقاويلهم الباطلة في القرآن العظيم والمؤمنين به فقال :

(وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه) أى وقال كفار مكة لأجل إيمان من آمن من فقراء المؤمنين كهمار وصُهيب وابن مسعود ومن لفّ إفهم : لو كان ما أتى به محمد خيراً ما سبقنا إليه هؤلاء ، فإن معالي الأمور لاتناها أيدي الأراذل ، وهؤلاء سقّاط الناس ورعاة الإبل والشاة ، وقد قالوا ذلك زعماً منهم أنهم المستحقون للسبق إلى كل مكرمة ، وأن الرياسة الدينية ممانتال بأسباب دنيوية ،

وقد غاب عنهم أنها منوطة بكالات نفسية وملكات روحية مبناها الإعراض عن زخارف الدنيا الدنية والإقبال على الآخرة ، وأن من فاز بها فقد حازها بجذافيرها ، ومن حُرِمها فماله فيها من خلاق ، ولم يعلموا أن الله يختص برحمته من يشاء ويصطفى لدينه من يشاء .

وعن قتادة : قال ناس من المشركين نحن أعز وننحن ونحن فلو كان خيرا ماسبقنا إليه فلان وفلان فنزلت هذه الآية .

وروى أنه لما أسلمت جُهينة ومُرَينة وأسلم وغفار قالت بنوعامر وغطفان وأشجع وأسد : لو كان هذا خيرا ماسبقنا إليه رغاء البهْم والشاء .

فأجابهم الله عن هذا بقولهم :

(وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفاك قديم) أى وقد ظهر عنادهم واستكبارهم إذ لم يهتدوا به ، وسيقولون القينة بعد القينة والحين بعد الحين : هذا كذب مأثور عن الأقدمين ، انتقاصه ولأهله ، واستكبارا عن اتباع الحق . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الكبر بظن الحق وغط الناس » .

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم : « وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمَلَّى عَلَيْهِ بُكْرَةً أُصِيلًا » .

ثم رد عليهم طعنهم فى القرآن وأثبت صحته فقال :

(ومن قبله كتاب موسى إماما ورحمة وهذا كتاب مصدق لسانا عربيا لينذر الذين ظلموا وبشرى للحسنين) أى ومما يدل على صحة القرآن أنكم لاتنازعون فى أن الله أنزل التوراة على موسى وجعلها إماما لبني إسرائيل ورحمة لهم ، وهى قد اشتملت على البشارة بمقدم محمد صلى الله عليه وسلم فلا بد أن يكون محمد صادقا فى رسالته ، وأن يكون القرآن من عند الله ، وقد جاء بلسان عربى لينذر الذين ظلموا أنفسهم وهم مشركو مكة وهو بشرى لمن أحسن عملا .

والخلاصة — كيف يكون إفاكا قديما وهو مصدق لسكتاب موسى الذى تعرفون بصدقه ، وهو بلسان عربى والتوراة بلسان عبرى ، فتصديق الأول للثانى دليل على اتحادها صدقا — فبطل كونه إفاكا قديما وثبت الصدق القديم .

وبعد أن ذكر طريق المبطلين أرشد إلى طريق المحقين وذكر جزاءهم فقال :
(إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) أى إن الذين قالوا ربنا الله لا إله غيره ، ثم استقاموا على تصديقهم بذلك ولم يخلطوه بشرك ، ولم يخالفوا الله فى أمر ولا نهى — فلا خوف عليهم من فزع يوم القيامة وأهواله ، ولا هم يحزنون على ما خلفوا وراءهم بعد مماتهم .

(أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون) أى هؤلاء الذين قالوا هذا القول واستقاموا — هم أهل الجنة ما كثين فيها أبدا ثوابا منا لهم كفاء ما قدموا من صالح الأعمال فى الدنيا .

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِالذِّكْرِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ
كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ
سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ
وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ
المُسْلِمِينَ (١٥) أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا و نتجاوز عن
سيئاتهم فى أصحاب الجنة وَعَدَّ الصَّدَقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ (١٦)

شرح المفردات

الإيضاء والوصية : بيان الطريق القويم لغيرك ليسلسكه ، والإحسان : خلاف الإساءة ، والحسن : خلاف القبح ، والمراد أنه يفعل معهما فعلا ذا حسن ،

والكره (بالضم والفتح) كالضعف والضعف : المشقة ، وحمله : أى مدة حمله ، وفصاله : فطامه ؛ والمراد به الرضاع التام المنتهى بالفطام ، والأشد : استحكام القوة والعقل ، وأوزعنى : أى رغبتى ووقفنى ، من أوزعته بكذا : أى جعلته مواماً به راغباً فى تحصيله ، والقبول : هو الرضا بالعمل والإثابة عليه ، فى أصحاب الجنة : أى منتظمين فى سلوكهم كما تقول أكرمى الأمير فى أصحابه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فى سابق الآيات توحيد سبجانه وإخلاص العبادة له والاستقامة فى العمل — أردف هذا بالوصية بالوالدين ، وقد فعل هذا فى غير موضع من القرآن الكريم كقوله : « وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا » وقوله : « أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ » .

روى أن هذه الآية نزلت فى أبى بكر إذ أسلم والداه ولم يتفق ذلك لأحد من الصحابة ، فأبوه أبو خنافة عثمان بن عمرو ، وأمه أم الخير بنت صخر بن عمرو .

الإيضاح

(ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً) أى أمرناه بالإحسان إليهما والحنو عليهما ، والبر بهما فى حياتهما وبعد مماتهما ، وجعلنا البر بهما من أفضل الأعمال ، وعقوقهما من الكبائر ، والآيات والأحاديث فى هذا الباب كثيرة .

ثم ذكر سبب التوصية وخص الكلام بالأمر لأنها أضعف وأولى بالرعاية ، وفضلها أعظم كما ورد فى صحيح الأحاديث ومن ثم كان لها ثلثا البر ؛ فقال :

(حملته أمه كرها ووضعته كرها) أى إنها قاست فى حمله مشقة وتعباً من وحم وغثيان وثقل إلى نحو أولئك مما ينال الحوامل ، وقاست فى وضعه مشقة من تعب الطلق وألم الوضع ، فكل هذا يستدعى البر بها واستحقاقها للكرامة وجميل الصحبة .

ثم بين سبحانه مدة حمله وفصاله فقال :

(وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) أى ومدة حمله وفصاله ثلاثون شهرا تكابد الأم فيها الآلام الجسمية والنفسية ، فتسهر الليالي ذوات العدد إذا مرض وتقوم بغذائه وتنظيفه وكل شئونه بلا ضجر ولا ملل ، وتحزن إذا اعتل جسمه أو ناله مكروه يؤثر في نموه وحسن صحته .

وفي الآية إيماء إلى أن أقل الحمل ستة أشهر ، لأن أكثر مدة الإرضاع حولان كاملان لقوله تعالى : « وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُبْرِئَهُمُ الرِّضَاعَةَ » فلم يبق للحمل إلا ستة أشهر ، وبذلك يعرف أقل الحمل وأكثر الإرضاع .

وأول من استنبط هذا الحكم منها على كرم الله وجهه وواقفه عليه عثمان وجمع من الصحابة رضى الله عنهم . روى محمد بن إسحاق صاحب السيرة عن معمر بن عبد الله الجهني قال : تزوج من رجل من امرأة من جهينة فولدت له لتمام ستة أشهر ، فانطلق زوجها إلى عثمان رضى الله عنه فذكر ذلك له ، فبعث إليها ، فلما قامت لتلبس ثيابها بكى أختها ، فقالت لها : وما يبكيك ؟ فوالله ما التبس بي أحد من خلق الله تعالى غيره قط ، فيقضى الله في ما شاء ، فلما أتى بها عثمان أمر برجمها ، فبلغ ذلك عليا فأتاه فقال ما تصنع ؟ قال ولدت لتمام ستة أشهر وهل يكون ذلك ؟ فقال له علي : « أما تقرأ القرآن ؟ قال بلى ، قال : أما سمعت الله عز وجل يقول (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) وقال : « حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ » فلم تجده أبقى إلا ستة أشهر ، فقال عثمان : والله ما فطنت لهذا ، على بالمرأة ، فوجدها قد فرغ منها ، قال معمر فوالله ما الغراب بالغراب ولا البيضة بالبيضة بأشبهه منه بأبيه ، فلما رآه أبوه قال : ابني والله لا أشك فيه .

وعن ابن عباس أنه كان يقول : إذا ولدت المرأة لتسعة أشهر كفها من الرضاع

أحد وعشرون شهرا ، وإذا ولدت لسبعة أشهر كفاها من الرضاع ثلاثة وعشرون شهرا ، وإذا ولدت لستة أشهر فحولان كاملان لأن الله يقول : (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) .

(حتى إذا بلغ أشده) أى حتى إذا اكتهل واستوفى السن التى تستحكم فيها قوته وعقله وهى فيما بين الثلاثين والأربعين .

(وبلغ أربعين سنة) وهذا نهاية استحصاد العقل واستكماله ، ومن ثم روى عن ابن عباس : من أتى عليه الأربعون ولم يغلب خيره شره فليتجهز إلى النار ولهذا قيل :

إذا البرء وافى الأربعين ولم يكن له دون مايهوى حياء ولا سِتر
فدعه فلا تنفس عليه الذى مضى وإن جرَّ أسباب الحياة له العمر

قال المفسرون: لم يبعث الله نبيا قط قبل الأربعين إلا ابني الخالة «عيسى ويحيى» .

(قال رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والديّ) أى رب وفقنى لشكر نعمك التى غمرتنى بها فى دينى ودنياى ، بما أنعمت به من سعة فى العيش وصحة فى الجسم وأمن ودعة للإخلاص لك واتباع أوامرك وترك نواهيك ، وأنعمت بها على والديّ من تحننهما علىّ حين ربيانى صغيرا .

(وأن أعمل صالحا ترضاه) أى واجعل عملى وفق رضاك لأنال مثوبتك .

(وأصلح لى فى ذريتى) أى واجعل الصلاح ساريا فى ذريتى متمكنا من نفوسهم راسخا فى قلوبهم .

قال ابن عباس : أجاب الله دعاء أبى بكر فأعتق تسعة من المؤمنين منهم بلال وعامر بن فهيرة ، ولم يُرد شيئا من الخير إلا أعانه عليه ، ودعا فقال : أصلح لى فى ذريتى ، فأجابه الله تعالى ، فلم يكن له ولد إلا آمنوا جميعا ، فاجتمع له إسلام أبويه وأولاده جميعا ، وقد أدرك أبوه وولده عبد الرحمن وولده أبو عتيق النبىّ

صلى الله عليه وسلم وآمنوا به ، ولم يكن ذلك لأحد من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين .

(إني تبت إليك وإني من المسلمين) أى إني تبت إليك من ذنوبي التي فرطت مني في أيامي الخوالي ، وإني من الخاضعين لك بالطاعة المستسلمين لأمرك ونهيك ، المتقادين لحكمك .

روى أبو داود في سننه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُبتهِمهم أن يقولوا في التشهد : اللهم ألف بين قلوبنا ، وأصلح ذات بيننا ، واهدنا سبيل السلام ، ونجِّنا من الظلمات إلى النور ، وجنِّبنا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، وبارك لنا في أسماعنا وأبصارنا وقلوبنا ، وأزواجنا وذرياتنا ، وتُبِّ علينا إنك أنت التواب الرحيم ، واجملنا شاكرين لنعمتك ، مُتَّنين بها عليك ، وأتقنا عليها .

ثم ذكر جزاء أصحاب هذه الأوصاف الجليلة فقال :

(أولئك الذين تقبل عنهم أحسن ما عملوا وتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة) أى هؤلاء الذين هذه صفاتهم هم الذين يتقبل الله عنهم أحسن ما عملوا في الدنيا من صالح الأعمال ، فيجازيهم به ويثيبهم عليه ، ويصفح عن سيئات أعمالهم التي فرطت منهم في الدنيا لما لم تكن عادة لهم ، بل جاءت بحافز من القوة الشهوانية أو القوة الغضبية فلا يعاقبهم عليها ، وهم منتظمون في سلك أصحاب الجنة ، داخلون في عدادهم .

ثم أكد الوعد السابق بقوله :

(وعد الصدق الذي كانوا يوعدون) أى وعدهم الله الوعد الحق الذي لا شك فيه وأنه موفٍ به .

وهذه الآية كما تنطبق على سعد بن أبي وقاص وعلى أبي بكر الصديق اللذين قيل في كل منهما إن الآية نزلت فيه تنطبق على كل مؤمن ، فهو موصى بوالديه ،

مأمور أن يشكر نعمة الله عليه وعلى والديه ، وأن يعمل صالحا ، وأن يسعى في إصلاح ذريته ، ويدعو الله أن يوفقه لعمل أهل الجنة .

وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفِ لَكُمَا أْتَمَدَانِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلْتُ
الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي ؟ وَهُمَا يَسْتَفْهِيَانِ اللَّهَ وَيَلُكَّ آمِنَ ، إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ
فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (١٧) أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ
فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ (١٨)
وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُؤَفِّقَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يَظُنُّونَ (١٩) وَيَوْمَ
يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلْهَبَتْكُمْ طَبِيبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا
وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا ، فَالْيَوْمَ يُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ
فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠) .

شرح المفردات

أَفِ : صوت يصدر من الإنسان حين تضجره ، أخرج : أى أبعث من القبر
للحساب ، خلت القرون من قبلى : أى مضت ولم يخرج منها أحد ، يستفحيان الله :
أى يقولان الفياث بالله منك ، يقال استغاث الله واستغاث بالله ، والمراد أنهما يستفحيان
بالله من كفره إنكارا له واستعظاما له حتى لجأ إلى الله فى دفعه كما يقال العياذ بالله
من كذا ، ويلك : دعاء عليه بالثبور والهلاك ، ويراد به الحث على الفعل أو تركه
إشعاراً بأن مرتكبه حقيق بأن يهلك ، فإذا سمع ذلك ارعوى عن غيئه وترك ما هو
فيه وأخذ بما ينجيه ، أساطير الأولين : أى أباطيلهم التى سطرورها فى الكتب من

غير أن يكون لها حقيقة ، حق عليهم القول : أى وجب عليهم قوله لإبليس «لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ» من الخاسرين : أى الذين ضيعوا نظرهم الشبيه بروع الأموال باتباعهم هزات الشياطين ، والدرجات : المنازل واحدها درجة ، وهى المنزلة ، ويقال لها منزلة إذا اعتبرت صعودا ، ودرجة إذا اعتبرت حدورا ، ومن ثم يقال درجات الجنة ، ودرجات النار ، فالتعبير بالدرجات هنا على سبيل التغليب ، طيباتكم : أى شبابكم وقوتكم يقولون ذهب أطيباه أى شبابه وقوته ، الهون : أى الهوان والذل ، تفسقون : أى تخرجون من طاعة الله .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه حال الداعين للوالدين ، البررة بهما ، ثم ذكر ما أعد لها من الفوز والنجاة فى الدار الآخرة — أعقب هذا بذكر حال الأشقياء العاقين للوالدين المنكرين للبعث والحساب ، المحتجين بأن القرون الخوالى لم تبعث ، ثم رد الآباء عليهم بأن هذا اليوم حق لاشك فيه ، ثم بإجابة الأبناء لهم بأن هذه أساطير الأولين وخرافاتهم ، ثم ذكر أن أمثال هؤلاء ممن حق عليهم القول بأن مصيرهم إلى النار .

ثم أردف هذا بأن لسلك من البررة والكفرة منازل عند ربهم كفاء ماقدموا من عمل وسيجزون عليها الجزاء الأوفى ، ثم أخبر بأنه يقال للكفار حين عرضهم على النار : أأنتم قد تمتعتم فى الحياة الدنيا واستكبرتم عن اتباع الحق وتعاطيتم الفسوق والمعاصى ، فجازاكم الله بالإهانة والخزى والآلام الموجبة للحسرات المتتابعة فى دركات النار .

الإيضاح

(والذى قال لوالديه أف لكما ، أتمداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى ؟) أى والذى قال لوالديه أن دعواه إلى الإيمان والإقرار ببعث الله خلقه من

قبورهم ومجازاته إياهم بأعمالهم : أف لكا : إني لضجر منك ، أتقولان إني أبعث من قبرى حيا بعد موتى وفنائى وما لحفتنى من بلى وتفتت عظام ؟ إن هذا لعجب عجب فهامى ذى قرون مضت ، وأم قد خلت من قبلى كماد وثمود ولم يبعث منهم أحد ، ولو كنت مبعوثا بعد وفاتى كما تقولان لبعث من قبلى من القرون الغابرة ؛ ألا ترى إلى قول من قال :

ما جاءنا أحد يخبّر أنه في جنة لما مضى أو نار

وزعم مروان بن الحكم أنها نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق رضى الله عنه ، وقد ردت عليه عائشة رضى الله عنها . أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عبد الله قال : إني لفي المسجد حين خطب مروان فقال : إن الله قد رأى لأمير المؤمنين (يعنى معاوية) في يزيد رأياً حسناً أن يستخلفه ، فقد استخلف أبو بكر وعمر ، فقال عبد الرحمن بن أبي بكر : سنة هرقل وقيصر^(١) إن أبا بكر رضى الله عنه ماجعلها في أحد من ولده ولا أحد من أهل بيته ، ولا جعلها معاوية إلا رحمة وكرامة لولده ، فقال مروان : أأنت « الَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أَفٍ لَكُمَا » فقال عبد الرحمن : أأنت ابن العين الذى لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم أباك ، فسمعت عائشة فقالت لمروان : أنت القائل لعبد الرحمن كذا وكذا ، كذبت والله ما فيه نزلت ، نزلت في فلان بن فلان .

والحق أن الآية لم ترد في شخص معين ، بل المراد كل شخص يقول أمثال هذه المقالة فيدعوه أبواه إلى الإيمان بالبعث وإلى الدين الصحيح فأبى وينكر .
(وها يستغيثان الله ويملك آمن إن وعد الله حق) أى ووالداه يستصرخان الله عليه ويستغيثانه أن يوفقه إلى الإيمان بالبعث ويقولان له حثا وتحريضا : هلا كالك صدق بوعد الله وأنتك مبعوث بعد وفاتك ، إن وعد الله الذى وعده خلقه أنه باعثهم من قبورهم ومخرجهم منها إلى موقف الحساب لمجازاتهم حق لاشك فيه .

(١) يريد أن البيعة لأولاد الملوك سنة ملوك الروم ؛ وهرقل : اسم ملك الروم .

والخلاصة — إنهما يستعظمان قوله ويلجأان إلى الله في دفعه ويدعوان عليه بالويل والثبور ليستحياه على ترك ما هو فيه ويشعراه بأن ما يرتكبه جدير بأن يهلك فاعله .

ثم ذكر رده عليهما مع الاستهزاء بهما والتعجب من حالهما .

(فيقول : ما هذا إلا أساطير الأولين) أى فيقول مجيبا والديه رادا عليهما نصحهما مكذبا بوعد الله : ما هذا الذى تقولان لى وتدعوانى إليه ، إلا ماسطره الأولون من الأباطيل ، فأصبتما أتما وصدقتما به ، ولا ظلَّ له من الحقيقة .

ثم ذكر سبحانه جزاء هؤلاء على ما قالوا واعتقدوا فقال :

(أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس) أى هؤلاء الذين هذه فهم أوصامم الذين وجب عليهم عذاب الله وحلت عليهم عقوبته وسخطه فيمن حل به العذاب من الأمم الذين قد مضوا من قبلهم من الجن والإنس ممن كذبوا الرسل وعتوا عن أمر ربهم .

وفى الآية إيماء إلى أن الجن يموتون قرنا بعد قرن كالإنس ، قال أبو حيان فى البحر : قال الحسن البصرى فى بعض مجالسه : الجن لا يموتون ، فاعترضه قتادة بالآية فسكت .

وفى رده أيضا على من قال : إنها نزلت فى عبد الرحمن بن أبى بكر ، لأنه رضى الله عنه أسلم وجبَّ عنه ما قبل وكان من أفاضل الصحابة ، أما من حق عليه القول فهو من علم الله تعالى أنه لا يُسَلِّم أبدا .

ثم ذكر العلة فى هذا العذاب المهين فقال :

(إنهم كانوا خاسرين) لأنهم ضيعوا فطرهم التى فطرهم الله عليها واتبعوا الشيطان ، فعبثوا ببيعهم الهدى بالضلال ، والنعم بالعذاب .

ثم ذكر أن لكل من الفريقين الذين قالوا ربنا الله ، والذى قال لوالديه مراتب متفاوتة فقال :

(ولكل درجات مما عملوا وليوفهم أعمالهم وهم لا يظلمون) أى ولكل من الأبرار والفقار من الإنس والجن مراتب عند الله يوم القيامة على حسب أعمالهم من خير أو شر فى الدنيا ، وليوفهم أجور أعمالهم ، المحسن منهم بإحسانه ، والمسيء منهم بإساءته ، وهم لا يظلمون شيئاً حينئذ ، فلا يعاقب المسيء إلا بعقوبة ذنبه ، ولا يحمل عليه ذنب غيره ، ولا يبغض المحسن منهم ثواب إحسانه .
وبعد أن بين سبحانه أنه يعطى كل ذى حق حقه — بين الأحوال التى يلاقيها الكافرون فقال :

(ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون) أى واذا ذكر لقومك حال الذين كفروا حين يعذبون فى النار، ويقال لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ : إن كل ما قدر لكم من اللذات والنعم قد استوفيتموه فى الدنيا وتلتموه ولم يبق لكم منه شيء ، ولكن بقيت لكم الإهانة والخزى جزاء استكباركم وفسوقكم عن أمر ربكم وخروجكم من طاعته .

وفى هذا تحريض على التقلل من زخرف الدنيا وزينتها والأخذ بالتقشف فيها .
أخرج سعيد بن منصور وعبد بن حميد وابن المنذر والحاكم والبيهقى عن ابن عمر أن عمر رضى الله عنه رأى فى يد جابر بن عبد الله رضى الله عنه درهما فقال ما هذا الدرهم؟ قال أريد أن أشتري به لأهلى لما قرموا إليه ، فقال : أكلما اشتهيتم شيئاً اشتريتموه؟ أين تذهب عنكم هذه الآية : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » .

وروى الحسن بن الأحنف بن قيس أنه سمع عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : لأننا أعلم بخص العيش ، ولو شئت لجعلت أكباداً وصلاً^(١) وصناباً وصلاتق

(١) الصلاء : الشواء بالمد والكسر ؛ والصناب : صباغ (سلطة) يتخذ من الخردل والزبيب ،
والصلاتق : الحملان المشوية

ولكنى أستبقي حسناتى ، فإن الله عز وجل وصف أقواما فقال : « أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا » .

وأخرج أحمد والبيهقي فى شعب الإيمان عن ثوبان رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سافر كان آخر عهده من أهله فاطمة ، وأول من يدخل عليه منهم فاطمة رضى الله عنها ، فقدم من غزاة فأتاها فإذا بمسح (بكسر فسكون ، وهو ثوب من شعر غليظ) على بابها ، ورأى على الحسن والحسين قلوبين (مثنى قلب بضم فسكون السوار) من فضة فرجع ولم يدخل عليها ، فلما رأت ذلك ظنت أنه لم يدخل من أجل ما رأى ، فهتكت الست وزعت القلوب من الصبطين فقطعتهما فبكيا ، فقسمت ذلك بينهما ، فانطلقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهما يبيكان ، فأخذ ذلك رسول الله منهما ، وقال يا ثوبان اذهب بهذا إلى بنى فلان (أهل بيت بالمدينة) واشتر فاطمة قلادة من عصب (بفتح فسكون خرز أبيض) وسوارين من عاج ، فإن هؤلاء أهل بيتي : ولا أحب أن يأكلوا طيباتهم فى حياتهم الدنيا » .

وقد كان السلف الصالح يؤثرون التقشف والزهد فى الدنيا رجاء أن يكون ثوابهم فى الآخرة أكمل ، لا أن التمتع بزخارف الدنيا مما يمتنع ، بدليل قوله تعالى « قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ » .

نعم إن الاحتراز عن التمتع أولى ، لأن النفس إذا اعتادت ذلك وألفته صعب عليها تركه والاكتفاء بما دونه ، والله درّ البوصيرى إذ يقول :

والنفس كالطفل إن تهمله شبّ على حب الرضاع وإن تطفمه ينظم

والذى يضبط هذا الباب ويحفظ قانونه : أن على المرء أن يأكل ما وجد ، طيبا كان أو فقارا (الطعام بلا أدم) ولا يتكلف الطيب ويتخذة عادة ، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يشبع إذا وجد ، ويصبر إذا عديم ، ويأكل الحلوى إذا قدر عليها

ويشرب العسل إذا اتفق له ، ويأكل اللحم إذا تيسر ، ولا يعتمده أصلاً ، ولا يجعله ديدناً له .

قصص هود عليه السلام مع قومه عاد

وَأذْكَرَ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَسْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٢١) قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَّ عَنْ آلِهَتِنَا ، فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٢٢) قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ وَلَكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ (٢٣) فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَّتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمَطَّرُونَ ، بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٤) تَدْمُرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ، فَاصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَآكِنَهُمْ ، كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (٢٥) وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٢٦) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى وَصَرَفْنَا الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٢٧) فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْبَانًا آلِهَةً بَلْ صَلَّوْا عَنْهُمْ وَذَلِكِ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٨)

شرح المفردات

أخاعاد : هو هود عليه السلام ، والأحقاف : واحدها حقف (بالكسر والسكون) وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، سمي به وإد بين عمّان ومَهْرَة كانت تسكنه عاد ، وكانوا أهل عمل ، سياراة في الربيع ، فإذا هاج العود رجعوا إلى منازلهم ، وهم من قبيلة إرم ، والنذر : واحد من نذير أى منذر ، من بين يديه : أى من قبله ، ومن خلفه : أى من بعده ، لتأفكنا : أى لتصرفنا ، عن آهتنا : أى عن عبادتها ، بما تعدنا : أى من معاملة العذاب على الشرك ، إنما العلم عند الله : أى العلم بوقت نزوله عند الله ، والعارض : السحاب الذى يعرض فى أفق السماء قال الأعشى :

يا من رأى عارضا قد بت أرمقه كأنما البرق فى حافاته الشعل

مستقبل أوديتهم : أى متجها إليها ، تُدَمِر : أى تهلك ، حاق : أى نزل ، صرفنا : أى بيننا ونوعنا ، الآيات : الحجج والبر ، فلولا : أى فهلا ، نصرم : أى منهم ، قربانا : أى مقربا إليها إلى الله ، ضلوا عنهم : أى غابوا عنهم ، إفكهم : أى أتر إفكهم وصرفهم عن الحق ، وما كانوا يفترون : أى وأتر افتراءهم وكذبهم .

المعنى الجملى

بعد أن أورد سبحانه الدلائل على إثبات التوحيد والنبوة التى أعرض عنها أهل مكة ولم يلتفتوا إليها ولم تُجِدْهم فتيلًا ولا قطميرًا ، لاستغراقهم فى الدنيا واشتغالهم بطلبها — أورد هذا بذكر قصص عاد وضرب لهم المثل ليعتبروا فيتركوا الاعتقار بما وجدوه من الدنيا ، ويقبلوا على طاعة الله ، فقد كانوا أكثر منهم أموالا وأقوى منهم جندا ، فسلط الله عليهم العذاب بسبب كفرهم ولم يغن عنهم ما لهم من الله شيئًا .

الإيضاح

(واذكر أخطأ عاد إذ أنذر قومهم بالأحقاف وقد خلت النذر من بين يديه ومن خلفه ألا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم) أى واذكر أيها الرسول لقومك المكذبين ماجتتهم به من الحق - هوذا أخطأ عاد فقد كذبه قومهم بالأحقاف حين أنذرهم بأس الله وشديد عذابه ، وقد مضت رسل من قبله ومن بعده منذرة أممها ألا تشركوا مع الله شيئا فى عبادتكم إياه ، بل أخلصوا له العبادة ، وأفردوا له الألوهة ، وقد كانوا أهل أوثان يعبدونها من دون الله ، فقال لهم ناصحا : إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم المهول «يَوْمَ لَا يُغْنِي مَوْتِي عَنْ مَوْتِي شَيْئًا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ آمَنَ أَنَّى اللَّهُ يَقْلِبُ السِّلْمَ » .

وحين نصحهم بذلك أجابوه :

(قالوا أجبثنا لتأفكنا عن آلهتنا ؟ فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) أى قال قومهم له : أجبثنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا إلى عبادة ما تدعوننا إليه وإلى اتباعك فيما تقول ؟ هلم فهات ما تعدنا به من العذاب على عبادة ما نعبد من الآلهة إن كنت صادقا فى قولك وعِدَّتِكَ .

والخلاصة - أنزلنا بضروب من الكذب عن آلهتنا وعبادتها ؟ فأتنا بما تعدنا من معاملة العذاب على الشرك إن كنت صادقا فى وعيدك ، وقد استعجلوا عذاب الله وعقوبته استبعادا منهم لوقوعه كما قال تعالى . « يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا » .

فردَّ هود عليهم مقالهم :

(قال إنما العلم عند الله) أى قال : إنما العلم بوقت نزوله عند الله وحده لا عندى فلا أستطيع تعجيله ولا أقدر عليه ، ثم بين وظيفته فقال :

(وأبلغكم ما أرسلت به إليكم) من ربكم من الإنذار والإعذار ، لا أن آتى بالعذاب ، فليس ذلك من مقدورى ، بل هو من مقدورات ربي .

ثم بين لهم أنهم جاهلون بوظيفة الرسل فقال :

(ولكنى أراكم قوما تجهلون) أى وإبنى لأعتقد فيكم الجهل ، ومن ثم بقيتم مصرين على كفركم ، ولم تهتدوا بما جئكم به ، بل اقترحتم على ما ليس من شأن الرسل ، وهو الإتيان بالعذاب .

ثم ذكر مجيء العذاب إليهم وانتقامه منهم واستئصال شأقتهم فقال :

(فلما رأوه عارضا مستقبلا أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا) أى فلما جاءهم عذاب الله الذى استعجلوه ، فرأوا سحابة يعرض فى أفق السماء متجها إلى أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرنا ، ظنا منهم أن غيثا قد أتاهم وفيه حياتهم .

روى أنه قد حبس عنهم المطر أياما ، فساق الله إليهم سحابة سوداء ، فخرجت عليهم من وادٍ لهم يقال له المعتب ، فلما رأوها تستقبل أوديتهم استبشروا بها خيرا . ولما سمع هود مقالهم وشامه مليا قال :

(بل هو ما استعجلتم به) من العذاب إذ قلتم « فَأَتِنَا بِمَا تَعَدُّنَا إِنْ كُنْتُمْ مِنَ الصَّادِقِينَ » .

ثم فسر هذا العارض وبين حقيقته فقال :

(ريح فيها عذب أليم) أى بل هو ريح فيها عذاب يهلككم ويحملككم كأس الدابر .

ثم وصف هذه الريح فقال :

(تدمر كل شيء بأمر ربها) أى تهلك كل شيء مرت به من نفوس عاد وأموالها بأذن ربها .

ونحو الآية قوله تعالى : « مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّمِيمِ » أى كالشيء البالى الخلق .

ثم ذكر مآل أمرهم بعدها فقال :

(فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم) أى فجاءتهم الريح فدمرتهم فصاروا بعد الهلاك لا يرى إلا آثار مساكنهم ، إذ قد اجتاحت الأموال وأذهبت الأنفس وجعلتها أترا بعد عين .

روى عن ابن عباس : أن أول ما عرفوا أنه عذاب أليم أنهم رأوا ما كان فى الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير به الريح بين السماء والأرض فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم ، فقلعتها الريح وصرعتهم : وأحال الله عليهم الرمال فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام ، ثم كشفت الريح عنهم الرمال فاحتملتهم فطرحتهم فى البحر .

أخرج مسلم والترمذى والنسائى عن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح قال : اللهم إنى أسألك خيبرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أرسلت به ، فإذا أخيلت السماء تغير لونه صلى الله عليه وسلم وخرج ودخل وأقبل وأدبر ، فإذا مطرت سرى عنه ، فسألته ؛ فقال عليه السلام لا أدرى لعلمه كما قال قوم عاد (هذا عارض ممطرها) » .

وأخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن عائشة قالت : « ما رأيت رسول الله مستجمعا ضاحكا حتى أرى منه لهواته ^(١) وإنما كان يبتسم ، وكان إذا رأى غيما وريحا عرف ذلك فى وجهه ، قلت يا رسول الله : الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف فى وجهك الكراهية ، قال : يا عائشة وما يؤمننى أن يكون فيه عذاب ، عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا هذا عارض ممطرنا » .

وفى صحيح مسلم عن ابن عباس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « نُصِرْتُ بالصَّبَا ، وَأُهْلِكَتْ عادٌ بالدَّبُورِ ^(٢) » .

(١) واحدتها لهأة : وهى اللعنة المشرفة على الخلق فى أقصى سقوف القم .

(٢) الصبا : ريح الشمال ، والدبور : ريح الجنوب .

وقد قال شاعرهم يحكى هذا القمص فيما رواه ابن الكلبي :

فدعا هود عليهم دعوة أضحوأ هُمودا
عصفت ربح عليهم تركت عادأ نخودا
سُخّرت سبع ليال لم تدع في الأرض عودا

(كذلك نجزي القوم المجرمين) أى كما جازينا عاداً بكفرهم بالله ذلك العقاب في الدنيا ، فأهلكناهم بمذابنا ، كذلك نجزي كل مجرم كافر بالله متبداً في غيبه .
ولا يخفى ما في هذا من التهديد والوعيد الشديد .

ثم أخبر سبحانه عن قوة عاد بقوله :

(ولقد مكناهم فيما إن مكناكم فيه) أى ولقد مكنا عاداً الذين أهلكتناهم بكفرهم فيما لم نمكنكم فيه من الدنيا ، وأعطيناهم منها ما لم نعظكم مثله ولا قريبا منه من الأموال الكثيرة وبسطة الأجسام وقوة الأبدان — وهم على ذلك ما نجوا من عقاب الله ، فتدبروا أمركم وفكروا فيما تعملون قبل أن يحل بكم العذاب ، ولا تجدون منه مهرباً .

ونحو الآية قوله : « كانوا أكثر منهم وأشد قوةً وآثاراً في الأرض » .

(وجعلنا لهم سمعاً وأبصاراً وأفئدة فما أغنى عنهم سمعهم ولا أبصارهم ولا أفئدتهم من شيء) أى إنا فتحنا عليهم أبواب نعمنا ، فأعطيناهم سمعاً فما استعملوه في سماع الأدلة والحجج ليعتبروا ويتذكروا ، وأعطيناهم أبصاراً ليروا مناصبنا من الشواهد الدالة على وجودنا فما انتفعوا بها ، وأعطيناهم قلوباً تفقه حكمة الله في خلق الأكوان فما استفادوا منها ما يفيدهم في آخرتهم وقرابهم من جوار ربهم ، بل صرفوها في طلب الدنيا ولذاتها ، لاجرم لم ينفعهم ما أعطيناهم من السمع والأبصار والأفئدة ، إذ لم يستعملوها فيما خلقت له من شكر من أنعم بها ودوام عبادته .

ثم بين العلة في عدم إغناء ذلك عنهم فقال :
 (إذ كانوا يجحدون بآيات الله) أى لأنهم كانوا يكذبون رسل الله وينكرون
 معجزاتهم .

(وحق بهم ما كانوا به يستهزئون) أى ونزل بهم ما سخروا به فاستعجلوه
 من العذاب .

وفى هذا تخويف لأهل مكة حتى يحذروا من عذاب الله ، ويخافوا عقابه ،
 فإن عادوا لما اغتروا بدنياهم ، وأعرضوا عن قول الحق — نزل بهم العذاب ، ولم
 تنعن عنهم قوتهم ولا كثرتهم شيئا — فأهل مكة معجزهم وضعفهم أولى .

ولما أخبر بهلاكهم على ما لهم من المسكنة العظيمة ، ليطمئن بهم من سمع أمرهم ،
 أتبعه بذكر من كان مشاركا لهم فى التكذيب ، فأدركه سوء العذاب كما أدركم فقال :
 (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى) أى ولقد أهلكنا يا أهل مكة ما حول
 قريتم من القرى المكذبة للرسل كعاد ، وقد كانوا بالأحقاف بحضرموت ، وثمود
 وكانت منازلهم بينهم وبين الشام ، وسيا باليمن ، ومدين ، وكانت فى طريقهم فى رحلاتهم
 صيفا وشتاء ، بعد أن أنذرتهم بالمثلات ، فلم يفتن ذلك عنهم شيئا فأخذناهم أخذ
 عزيز مقتدر .

(وصرّفنا الآيات عليهم يرجعون) أى وبيننا لهم دلائل قدرتنا ، وبديع حججنا
 ليرجعوا عن غيرهم الذى استمسكوا به لحض التقليد ، أو لشبهة عرضت لهم ، فحلّ
 بهم سوء العذاب ولم يجدوا لهم نصيرا ولا دافعا لعذاب الله ، وهذا ما عناه
 سبحانه بقوله :

(فلولاً نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قربانا آلهة ، بل ضلوا عنهم) أى فهلا
 نصرهم أو ثانتهم وآلهتهم التى اتخذوا عبادتها قربانا يتقربون به إلى ربهم فيما زعموا ،
 حين جاءهم بأسنا فأتقدهم من عذابنا إن كانوا يشفعون عنده .

وفي هذا تقرير لأهل مكة وتأنيب لهم على أنه لو كانت آلهتهم التي يعبدونها من دون الله تغني عنهم شيئاً ، أو تنفعهم عنده — لأغنت عن كان قبلهم من الأمم الذين أهلكوا بعبادتهم إياها ، فدفعت عنهم العذاب إذ نزل بهم ، أو لشغفت لهم عند ربهم ، لكنها أضرتهم ولم تنفعهم ، وغابت عنهم أحوج ما كانوا إليها ، فما أحرام أن يقننوا لما هم فيه من خطل الرأي وسوء التقدير للأمور .

(وذلك إفكهم وما كانوا يفترون) أى وامتناع نصره آلهتهم لهم وضلالهم عنهم — أثر من آثار إفكهم الذى هو اتخاذهم إياهم آلهة ، وثمرة افتراءهم على الله الكذب .

استماع الجن للقرآن

وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ ، فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (٢٩) قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَىٰ الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ (٣٠) يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٣١) وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ ، أُولَٰئِكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٣٢) .

شرح المفردات

صرفنا: أى وجهنا ، والنفر: ما بين الثلاثة والعشرة من الرجال ، سمو بذلك : لأنهم ينفرون إذا حزبهم أمر لكفايته ، أنصتوا: أى اسكتوا ، قضى: أى فرغ

من تلاوته ، وتوا : أى رجعوا ، منذرين : أى مخوفين لهم عواقب الضلال . روى أن هؤلاء الجن كانوا من جن نصيبين من ديار بكر قريبة من الشام ، أو من نينوى بالموصل ، وكان الاجتماع بوادى نخلة على نحو ليلة من مكة ، وقد أمر الرسول صلى الله عليه وسلم أن يندب الجن ويدعوهم إلى الله تعالى ويقرأ عليهم القرآن ، فصرف الله إليه نفراً منهم فاستمعوا منه ، حتى إذا انقضى من تلاوته رجعوا إلى قومهم منذريهم عقاب الله إذا هم استمروا على الضلال . أجاره الله من العذاب : أفضده منه ، وداعى الله : هو الرسول صلى الله عليه وسلم ، فليس بمعجز في الأرض : أى لا ينجى منه مهرب ، ولا يسبق قضاءه سابق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن فى الإنس من آمن ومنهم من كفر — أعقب هذا بيان أن الجن كذلك ، فمنهم من آمن ومنهم من كفر ، وأن مؤمنهم معرض للثواب ، وكافرهم معرض للعقاب ، وأن الرسول عليه السلام كما أرسل إلى الإنس أرسل إلى الجن .

واعلم أن عالم الملائكة وعالم الجن لا يقوم عليهما دليل من العقل ؛ فهو بمنزل عن ذلك ، وإنما دليلهما السمع وإخبار الأنبياء بذلك فقط ، فعلينا أن نؤمن بما جاء به فحسب ولا نزيد على ذلك شيئاً ، ولا نتوسع فى بحثه وتأويله وتفصيله ، فإن ذلك من عالم الغيب الذى لم نؤت من علمه كثيراً ولا قليلاً ، فعلينا أن نؤمن بأن اتصالاً قد تم بين النبى صلى الله عليه وسلم وعالم الملائكة ، وبه تلقى الوحى على أيديهم ، وأنه اتصل بعالم الجن ، فعلمهم وبشرهم وأنذرهم ، لكننا لا ندرى كيف كان الاتصال ولا كيف تلقوا عنه القرآن ، ولعل تقدم العلوم فى مستأنف الأيام يلقى علينا ضوءاً من هذه المعرفة ، أو لعل قراءة علم الروح والتوسع فى دراسته ينير لنا بعض السر

في ذلك ، ففي هذه الدراسة معرفة شيء من أحوالنا في الحياة الأخرى بعد هذه الحياة .
وسياتى تفصيل لهذا القصص في سورة الجن .

الإيضاح

(وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضى ولّوا إلى قومهم منذرين) أى واذا ذكر أيها الرسول لقومك موبخاً لهم على كفرهم بما آمنتم به الجن ، لعلمهم يتنبهون لجهلهم ، ويرععون عن غيهم وقبح ما هم فيه من كفر بالقرآن وإعراض عنه ، مع أنهم أهل اللسان الذى به نزل ، ومن جنس الرسول الذى جاء به ، وأولئك استمعوه وعلّموا أنه من عند الله وآمنوا به ، وليسوا من أهل لسانه ، ولا من جنس رسوله — فى ذلك الوقت الذى وجه الله إليه جماعة من الجن ، ليستمعوا القرآن ويتعظوا بما فيه من عبر وعظات ، فلما حضروا الرسول قال بعضهم لبعض : أنصتوا مستمعين ، فلما فرغ من تلاوته رجعوا إلى قومهم لينذروهم بأس الله وشديد عذابه .

وذكر الوقت ذكرنا فيه من الأحداث التى يراد إخبار السامع بها ، لما لها من خطر جليل وشأن عظيم ، فيراد علمه بها ليكون لها فى نفسه الأثر الذى يقصد منها من ترغيب أو ترهيب ، ومسرة أو حزن إلى نحو أولئك من أغراض الكلام ومقاصده .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن مسروق قال : سألت ابن مسعود من آذن النبي صلى الله عليه وسلم بالجن ليلة استمعوا القرآن ، قال آذنته بهم الشجرة .

وأخرج أحمد ومسلم والترمذى عن علقمة قال : قلت لابن مسعود : هل صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم منكم أحد ليلة الجن ، قال ما صحبه منا أحد ، ولكننا فقدناه ذات ليلة فقلنا اغتيل . استظير . ما فعل ؟ قال : فبتنا بشر ليلة بات بها قوم ،

فلما كان في وجه الصبح إذا نحن به يجمىء من قبل حراء فأخبرناه فقال : إنه أتانى داعى الجن فأتيتهم فقرأت عليهم القرآن ، فانطلق فأرانا آثامهم وآثار نيرانهم . وقد وردت أحاديث كثيرة أن الجن بعد هذا وفدت على رسول الله صلى الله عليه وسلم مرة بعد مرة ، وأخذت عنه الشرائع والأحكام الدينية . ثم فصل ما قالوه لهم في إنذارهم .

(قالوا : يا قومنا إنا سمعنا كتابا أنزل من بعد موسى مصدقا لما بين يديه يهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم) أى قالوا لهم يا قومنا من الجن : إنا سمعنا كتابا أنزله الله من بعد توراة موسى ، يصدق ما قبله من كتب الله التي أنزلها على رسله ، ويرشد إلى سبيل الحق ، وإلى مافيه لله رضا ، وإلى الطريق الذى لاعوج فيه . وخصوصا التوراة بالذكر لأنه متفق عليه عند أهل الكتابين . وقال عطاء لأنهم كانوا على اليهودية ، وهذا يحتاج إلى نقل صحيح .

(يا قومنا أجببوا داعى الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويحرمكم من عذاب أليم) أى يا قومنا أجببوا رسول الله محمدا صلى الله عليه وسلم إلى ما يدعوكم إليه من طاعة الله ، وصدقوه فيما جاء به من أمر الله ونهيه — يغفر لكم بعض ذنوبكم ويسترها لكم ولا يفضحكم بها فى الآخرة بعقوبته إياكم عليها ، وينقذكم من عذاب موجع ، إذا أتمتتم من ذنوبكم وأنتم إلى ربكم ، وأخلصتم له العبادة . وفى الآية إيماء إلى أن حكم الجن حكم الإنس فى الثواب والعقاب والتعبد بالأوامر والنواهي .

ثم حذروا قومهم وتوعدوهم وأوجبوا إجابتهم داعى الله بطريق الترهيب إثر إيجابها بطريق الترغيب فقالوا :

(ومن لا يجب داعى الله فليس بمعجز فى الأرض وليس له من دونه أولياء) أى ومن لا يجب رسول الله محمداً صلى الله عليه وسلم إلى مادعا إليه من التوحيد

والمعمل بطاعته ، فلا يفوت ربه ولا يسيقه هربا إذا أراد عقوبته على تكذيبه داعية ، ولا يجده نصرء ينصرونه ويدفعون عنه عذابه .

ثم بين أن من فعل ذلك فقد بلغ الغاية في الضلال ، والبعد عن الصراط السوى فقال :
(أولئك في ضلال بعيد) أى وأولئك الذين يفعلون ذلك يكونون في ضلال
بين وجور عن قصد السبيل ، لأن طريق الحق واضح وأعلامه منصوبة ، والوصول
إليه ميسور ، فمن جانفه وأعرض عنه فقد أجرم واستحق الجزاء الذى هو له أهل .

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَخْلُقْهُنَّ
بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخْبِيَ الْمَوْتَى؟ بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٣) وَيَوْمَ
يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ؟ قَالُوا بَلَى وَرَبَّنَا ،
قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٤) فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو
الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ
لَمْ يَلْبِسُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بِلَاغٌ ، فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ (٣٥) .

شرح المفردات

لم يعى : أى لم يعجزه ، قال الكسائى : يقال أعيت من التعب ، وعيت من
انقطاع الحيلة والعجز ، قال عبيد بن الأبرص :

عَيُوا بِأَمْرٍ كَمَا عَيَّتْ بِيضَتِهَا الْحَامَةُ

أولو العزم : أى ذوو الحزم والصبر ، قال مجاهد : هم خمسة نظمهم الشاعر فى قوله :

أولو العزم نوحٌ والخليل المجدُّ وموسى وعيسى والحبيبُ محمدٌ

بلاغ : أى كفاية فى الموعظة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر في أول السورة ما يدل على وجود الإله القادر الحكيم ، وأبطل قول عبدة الأصنام ، ثم نثى بإثبات النبوة وذكر شبهاتهم في الطعن فيها وأجاب عنها — أردف ذلك بإثبات البعث وأقام الدلائل عليه ، فذكر أن من خلق السموات والأرض على عظمهن فهو قادر على أن يحيى الموتى ، ثم أعقب هذا بما يجرى مجرى العظة والنصيحة لرسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على أذى قومه كما صبر من قبله أولو العزم من الرسل ، وبعدم استعجال العذاب لهم ، فإنه نازل بهم لاحتالة وإن تأخر ، وحين نزوله بهم سيستقصرن مدة لبثهم في الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار لهول ما عاينوا ، ثم ختم السورة بأن في هذه العظات كفاية أيما كفاية ، وما يهلك إلا من خرج عن طاعة ربه ، ولم ينقذ لأمره ونهيه :

الإيضاح

(أولم يروا أن الله الذى خلق السموات والأرض ولم يعى بخلقهن بقادر على أن يحيى الموتى؟) أى أولم ينظر هؤلاء المنكرون إحياء الخلق بعد وفاتهم ، وبعثه إياهم من قبورهم بعد بلام ، فيعلموا أن الذى خلق السموات السبع والأرض فابتدعهن من غير شيء ، ولم يعى في إنشأتهن — بقادر على أن يحيى الموتى فيخرجهم من بعد بلام في قبورهم أحياء كهيتهم قبل وفاتهم؟
ونحو الآية قوله عز وجل : « تَلَقُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » .

والخلاصة — إن من قال للسموات والأرض كونى فكانت بلا ممانعة ولا مخالفة ، طائفة خائفة وجلّة — أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ؟ .

ثم أجاب عن ذلك مقررًا للقدرة على وجه عام يكون كالبرهان على المقصود فقال:
(بلى إنه على كل شيء قدير) أى بلى إن الذى خلق ذلك — ذو قدرة على
كل شيء أراد خلقه ، ولا يعجزه شيء أراد فعله .

وقد أجاب سبحانه عن هذا السؤال ؛ لوضوح الجواب إذ لا يختلف فيه أحد ،
ولا يعارض فيه ذولب .

ولما أثبت البعث بما أقام من الأدلة ذكر ما يحدث حينئذ من الأحوال فقال:
(ويوم يعرض الذين كفروا على النار أليس هذا بالحق؟ قالوا بلى وربنا) أى ويوم
يعرض هؤلاء المكذبون بالبعث وبثواب الله لعباده على أعمالهم الصالحة ، وعقابه
إيأام على أعمالهم السيئة — على نار جهنم يقال لهم على سبيل التأنيب والتوبيخ :
أليس هذا العذاب الذى تعدّون به اليوم . وقد كنتم تكذبون به فى الدنيا — بالحق
الذى لاشك فيه ؟ قالوا من فورهم : بلى وربنا إنه لحق .

(قال فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون) أى قال أمر لهم على طريق الإهانة
والتوبيخ : ذوقوا عذاب النار الآن جزاء جحودكم به فى الدنيا وإياكم الاعتراف به
إذا دُعيتم للتصديق به .

ولما قرر التوحيد والنبوة والبعث وأجاب عن شبهاتهم — أردف ذلك بما يجرى
مجرى العظة والنصيحة لنبية ، لأن الكفار كانوا يؤذونه ويوغرون صدره فقال :

(فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل) أى فاصبر أيها الرسول على ما أصابك
فى الله من أذى مكذبيك من قومك الذين أرسلناك إليهم منذراً ، كما صبر أولوا العزم
من الرسل على القيام بأمر الله والالتناء إلى طاعته .

والخلاصة — اصبر على الدعوة إلى الحق ومكابدة الشدائد كما صبر إخوانك
الرسل من قبلك .

وعن عائشة قالت : ظلّ رسول الله صلى الله عليه وسلم صائمًا ثم طوى ، ثم ظلّ
صائمًا ثم طوى ثم ظلّ صائمًا قال يا عائشة : « إن الدنيا لا تنبغى لحمد ولا لآل محمد ،

يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم عن الرهيل إلا بالصبر على مكروها ، والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض منى إلا أن يكلفنى ما كلفهم فقال : « اضْبِرْ كَمَا صَبَرَ أَوْلُو الْقَرْمِ مِنَ الرُّسُلِ » وإني والله لأصبرن كما صبروا جهدى ولا قوة إلا بالله . أخرجه ابن أبي حاتم والدبلى .

ولما أمره بالصبر، وهو أعلى الفضائل، نهاء عن العجلة وهي أخس الرذائل فقال : (ولا تستعجل لهم) أى لاتعجل بمسألة ربك العذاب لهم ، فإنه نازل بهم لاحالة .

ونحو الآية قوله تعالى : « وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النِّمَةِ وَمَسْئَلُهُمْ قَلِيلًا » وقوله : « فَهَلِ الْكَافِرِينَ أَنهْلُهُمْ رَوِيْدًا » . ثم أخبر بأن العذاب إذا نزل بالكافرين استقصروا مدة لبثهم فى الدنيا حتى يحسبونها ساعة من نهار فقال :

(كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار) أى كأنهم حين يرون عذاب الله الذى أوعدهم بأنه نازل بهم - لم يلبثوا فى الدنيا إلا ساعة من نهار - لأن شدة ما ينزل بهم منه ينسيهم قدر ما مكثوا فى الدنيا من السنين والأعوام ، فيظنونها ساعة من نهار .

ونحو الآية قوله : « كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ؟ . قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِيْنَ » وقوله : « كَانَهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا نَجْشِيَّةً أَوْ ضِحَّاكًا » .

(بلاغ) أى هذا القرآن بلاغ لهم وكفاية إن فكروا واعتبروا ، ودليله قوله تعالى : « هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ » وقوله : « إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِّقَوْمٍ عَابِدِينَ » .

ثم أوعد وأنذر فقال :

(فهل يهلك إلا القوم الفاسقون) أى وما يهلك بالعباد إذا نزل إلا الخارجون عن طاعة الله المخالفون لأمره ونهيه ؛ إذ لا يعذب إلا من يستحق العذاب .
قال قتادة : لا يهلك على الله إلا هالك مشرك ، وهذه الآية أقوى آية في الرجاء .
ومن ثم قال الزجاج : تأويله لا يهلك مع رحمة الله وفضله إلا القوم الفاسقون ، وهذا تطميع في سعة فضل الله سبحانه وتعالى .

أخرج الطبراني في الدعاء عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدعو :
« اللهم إني أسألك موجبات رحمتك ، وعزائم مغفرتك ، والسلامة من كل إثم ، والغنيمية من كل بر ، والفوز بالجنة ، والنجاة من النار ، اللهم لاتدع لي ذنباً إلا غفرته ولا همّاً إلا فرّجته ، ولا ديناً إلا قضيته ، ولا حاجة من حوائج الدنيا والآخرة إلا قضيتها برحمتك يا أرحم الراحمين » .

خلاصة ما اشتملت عليه هذه السورة الكريمة

- (١) إقامة الأدلة على التوحيد والرد على عبدة الأصنام والأوثان .
- (٢) المعارضات التي ابتدعها المشركون للنبوة والإجابة عنها وبيان فسادها .
- (٣) ذكر حال أهل الاستقامة الذين وحدوا الله وصدقوا أنبياءه وبيان أن جزاءهم الجنة .
- (٤) ذكر وصايا للمؤمنين من إكرام الوالدين وعمل ما يرضى الله .
- (٥) بيان حال من انهمكوا في الدنيا ولذاتها .
- (٦) قصص عاد وفيه بيان أن صرف النعم في غير وجهها يورث الهلاك .
- (٧) استماع الجن للرسول صلى الله عليه وسلم وتبليغهم قومهم ماسمعه .
- (٨) عظة للنبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من أمته .
- (٩) بيان أن القرآن فيه البلاغ والسكفاية في الإنذار .
- (١٠) من عدل الله ورحمته ألا يعذب إلا من خرج من طاعته ولم يعمل بأمره ونهيه .

سورة محمد صلى الله عليه وسلم

وتسمى سورة القتال

هي مدنية إلا آية ١٣ فقد نزلت في الطريق أثناء الهجرة .

وعدة آياتها ثمان وثلاثون آية . نزلت بعد الحديد .

ولا تخفى قوة ارتباطها بما قبلها ، فإن أولها متلاحم بآخر السورة السابقة ، حتى لو أسقطت البسمة من البين لكان الكلام متصلا بسابقه لانفراقه ، ولكن بعضه آخذاً بمحجز بعض .

أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأها في صلاة المغرب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) .

شرح المفردات

صدوا عن سبيل الله : أى صرفوا الناس عن الدخول فى الإسلام ، وذلك يستلزم أنهم منعو أنفسهم عن الدخول فيه ، أضل أعمالهم : أى أبطلها ، وهو الحق

من ربهم : أى وهو الحق الثابت الذى لا مرية فيه ، بألهم : أى حالهم فى الدين والدنيا بالتوفيق لصالح الأعمال ، وأصل البال : الحال التى يكثر بها ، ولذلك يقال ما باليت به : أى ما اكثرت به ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « كل أمر ذى بال » الحديث . يضرب الله للناس أمثالهم : أى يبين لهم مآل أعمالهم وما يصيرون إليه فى مقامهم .

المعنى الجملى

قسم الله الناس فريقين : أهل الكفر الذين صدوا الناس عن سبيل الله ، وهؤلاء يبطل أعمالهم سواء كانت حسنة كصلة الأرحام وإطعام الطعام ، أو سيئة كالكيد لرسول الله والصدّة عن سبيل الله ، فالأولى يبطل ثوابها ، والثانية يمحوا أثرها ، وهكذا كل من قاوم عملاً شريفاً فإن مآله الخذلان .

وأهل الإيمان بالله ورسوله الذين أصلحوا أعمالهم ، وأولئك يغفر الله لهم سيئات أعمالهم ويوفقهم فى الدين والدنيا ، كما أضع أعمال الكافرين ولم يُثب عليها .

ثم علل ماسلف بأن أعمال الفريقين جرت على ما سنه الله فى الخليقة : بأن الحق منصور ، وأن الباطل مخذول سواء كان فى أمور الدين أم فى أمور الدنيا ، فالصناعات الحكمة إنما يقبل الناس عليها ويؤثرونها ، لأنها جارية على الطريق القويم والنسق الحق ، وهكذا الشأن فى اللزروعات والمصنوعات المتقنة الجيدة ، والسياسات الحكيمة .

فالصناعات المرذولة والسلع المزجاة لن يكون حظها إلا الكساد والبوار ، لأن الباطل لا يثبت له ، والحق هو الثابت ، والله هو الحق فينصر الحق ، والعلم الصحيح والدين الصحيح والصناعات الجيدة والآراء الصادقة تتأججها السعادة ، وضدها عاقبتها الشقاء والبوار .

وقصارى ذلك — إن الله سبحانه خلق السموات والأرض بالحق وعلى قوانين

ثابتة منظمة ، فكل ما قرب من الحق كان باقيا ، وكل ما ابتعد عنه كان هالكا ، فرجال الجِدِّ والنشاط مؤيدون ، ورجال الكسل والتواكل مخذولون ، والمحققون في كل شيء محبوبون منصورون .

الإيضاح

(الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم) أى الذين جحدوا توحيد الله وعبدوا غيره وصدوا من أراد عبادته والإقرار بوحدانيته وتصديق نبية عما أراد — جعل الله أعمالهم تسير على غير هدى ، لأنها عملت في سبيل الشيطان لافى سبيل الرحمن ، وما عمل للشيطان فأله الخسران .
فأعملوه فى الكفر مما كانوا يسمونه مكارم أخلاق : من صلة الأرحام وفك الأسارى وإطعام الطعام وعمارة المسجد الحرام وإجارة المستجير وقرى الأضياف ونحو ذلك — حكم الله ببطلانه ، فلا يرون له فى الآخرة ثوابا ، ويجزون به فى الدنيا من فضله تعالى .

ونحو الآية قوله : « وَقَدِمْنَا إِلَىٰ مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ غَجْمَلْنَا ۖ هَبَاءٌ مَنْثُورًا » .

قال ابن عباس : نزلت الآية فى المطعمين بيدر، وهم اثنا عشر رجلا : أبو جهل ، والحارث بن هشام ، وعتبة ، وشيبة ابنا ربيعة ، وأبى ، وأمية ابنا خلف ، ومُنْبِه وُنْبِيه ابنا الحجاج ، وأبو البختري بن هشام ، وزنعة بن الأسود ، وحكيم بن حزام ، والحريث بن عامر بن نوفل .

ولما ذكر سبحانه جزاء أهل الكفر ، أتبعهم بثواب أهل الإيمان فقال :

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم) أى والذين صدقوا الله وعملوا بطاعته واتبعوا أمره ونهيه وصدقوا بالكتاب الذى نزل على محمد ، وهو الحق من ربهم — مح الله

بفعلهم سيء ماعملوا فلم يؤاخذهم به ، وأصلح شأنهم في الدنيا بتوفيقهم لسبل السعادة ، وأصلح شأنهم في الآخرة بأن يورثهم نعيم الأبد والخلود الدائم في جناته . قال ابن عباس نزلت الآية في الأنصار .

ثم بين سبب الإضلال ، وإصلاح البال فقال :

(ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) أي وإنما أبطنا أعمال الكفار وتجاوزنا عن سيئات الأبرار ، وأصلحنا شئونهم ، لأن الذين كفروا اختاروا الباطل على الحق بما وسوس إليهم به الشيطان ، ولأن الذين آمنوا اتبعوا الحق الذي جاءهم من ربهم ، فأتار الله بصائرهم وهداهم إلى سبل الرشاد .

(كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) أي كما بينت لكم فعلى فريق الكفار والمؤمنين . كذلك تمثل للناس الأمثال ونشبه لهم الأشباه ، فنلحق بالأشياء أمثالها وأشكالها .

والخلاصة — إنه جعل اتباع الباطل مثلاً لعمل الكفار ، والإضلال مثلاً لحيئتهم ، واتباع الحق مثلاً لعمل المؤمنين ، وتكفير سيئاتهم مثلاً لنفوزهم ، وهكذا شأن القرآن يوضح الأمور التي فيها عظة وذكرى بضرر الأمثال كما ضرب المثل بالنخل والحنظل في سورة أخرى .

فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا ائْتَمَتُواكُمْ
فَشُدُّوا أَسْرَاقًا ، فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ،
ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَتْصَرَّ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ،
وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ

بِالْهَمِّ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا
 اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ
 أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) .

شرح المفردات

لقيم من اللقاه : وهو الحرب ، ففرض الرقاب : أى فالقتل ، وعبر به عنه تصويراً
 له بأشنع صورة وهو حز العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن وأوجه أعضائه
 ومجم حواسه ، وبقاء البدن ملقى على هيئة مستبشمة ، وفى ذلك من الغلظة والشدة
 ما ليس فى لفظ القتل ، وأختتموم : أى أكثرتم القتل فيهم ، فشدوا الوثاق : أى
 فأسروهم ، والوثاق : (بالفتح والكسر) : ما يوثق به ، منأ : أى إطلاقاً من الأسر
 بالمجان ، فداء : أى إطلاقاً فى مقابلة مال أو غيره ، والأوزار فى الأصل : الأحمال
 ويراد بها آلات الحرب وأثقالها من السلاح والكرع ، قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها رماحا طولاً وخيلاً ذكوراً

ومن نسج داودَ موضونةً تساق مع الحى غيراً فغيراً

انتصر : أى انتقم ببعض أسباب الهلاك من خسف أو رجفة أو غرق ، ليلو :
 أى ليختبر ، يضل : أى يضيع ، بالهم : أى شأنهم وحالم ، عرفها : أى بينها وأعلمها ،
 إن تنصروا الله : أى تنصروا دينه ، يثبت أقدامكم : أى يوقفكم للدوام على طاعته ،
 فتعسا لهم ، من قولهم : تعس (بفتح العين) الرجل تعسا : أى سقط على وجهه ، وضده
 انتمش : أى قام من سقوطه ، ويقال تما وتكسا (بضم النون) : أى سقوطاً على
 الوجه وسقوطاً على الرأس ، أحبط أعمالهم : أى أبطلها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن الناس فريقان : أحدهما متبع للباطل، وهو حزب الشيطان ، وثانيهما متبع للحق ، وهو حزب الرحمن - ذكر هنا وجوب قتال الفريق الأول حتى ينفى إلى أمر الله ، ويرجع عن غيئه ، وتخضد شوكته .

الإيضاح

(فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اخنتنوم فشدوا الوثاق فإما مناً بعداً وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) أى فإذا واجهتم المشركين فى القتال فأحصدوم حصداً بالسيوف حتى إذا غلبتموم وقهرتم من لم تضربوا رقابهم وصاروا فى أيديكم أسرى فشدوم فى الوثاق ، كى لا يقاتلوكم أو يهربوا منكم ، ثم أتم بعد انتهاء الحرب وانتهاء المارك — بالخيار فى أمرهم ، إن شئتم مندم عليهم فأطلقتموم بلا عوض من مال أو غيره ، وإن شئتم فاديتموم بمال تأخذونه منهم وتشاطرونهم عليه — حتى لا يكون حرب مع المشركين ولا قتال ، بزوال شوكتهم .

ونحو الآية قوله تعالى « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ » .

قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى فى الأسارى (فأما مناً بعد وإما فداء) وكان عليه عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده . روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « بعث النبى صلى الله عليه وسلم خيلاً قبيل نجد ، فجاءت برجل من بنى حنيفة ، يقال له ثمامة ابن أثال ، فربطوه فى سارية من سوارى المسجد ، فخرج إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ما عندك يا ثمامة ؟ فقال : عندى خير ، إن تقتلنى تقتل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل ماشئت ، حتى كان الغد ، فقال له صلى الله عليه وسلم : ما عندك يا ثمامة ؟ قال عندى ما قلت لك ، قال : أطلقوا

تمامة ، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى ، والله ما كان من دين أبغض إلى من دينك ، فأصبح دينك أحب الدين إلى ، والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك ، فقد أصبح بلدك أحب البلاد إلى ، وإن خيالك أخذتني وأنا أريد العمرة فإذا ترى ؟ فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل : صبوت ، قال لا ولكن أسلمت مع محمد صلى الله عليه وسلم .

وعن عمران بن حصين قال : أسر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من عَمِيلِ فأوثقوه ، وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف .

واعلم أن للحرب فوائد ، وللسلم أخرى ، فالأمم في حال الطفولة عقولها أشبه بعقول الشاب المراهق الذي لم يبلغ الحلم ، تراه يقاتل الصبيان ويشاجرهم ويوقع الأذى بهم وهم يزيدون في أذاه ، وينكفون به ، وهذه هي حال الأمم اليوم .

ألا إن الحرب تقوى الأبدان ، وترقى الصناعات ، وتجعل الأمم تنمو ، وتوقظ الشعور ، وتفتح المغلق ، وتيسر العسير ، قال أرسطو للإسكندر : إن الراحة مضرّة للأمم ، ومن ثم قيل : إذا أردت رقيّ أمة فاجعلها تخوض الحروب ؛ لذلك يفتح لها باب السعادة ؛ والأمم النائمة على فراش الراحة الوثير معرضة للزوال .

فإذا كملت أخلاق الأمم ومواهبها ، فإن نتائج السلم عندها ستكون كنتائج الحرب لدى من قبلها ، فكما يفرح الرجل في الأمم الحاضرة بغلبة الأعداء وشفاء الغليل وجمع الرجال والسلاح والكراع ، فسيكون فرح الأمم فيما بعد بمساعدة غيرها وانسراح صدورهم بظهور أم أخرى تكافح معها في ميدان الحياة ، ويكون كل فرد في الأمم المقبلة أشبه بالأب يكدح لمساعدة أبنائه ، وهذا الكدح والجِد في العمل لفائدة الجميع يجد فيه العامل لذة وفرحاً أشد من فرح المنتصر في ميادين القتال .

إن الأمم لا تزال في الطَّور الأول ، فهي تسعى لإسعاد نفسها بإهلاك سواها ، وسيأتي حين تسعى فيه لإسعاد الجميع ، ويكون فرحها بهذا المسعى أشد من فرحها بهزيمة الأعداء ، ويكون الناس جميعا بعضهم لبعض كالآباء والأبناء .

وإلى حال الكمال أشار سبحانه بقوله : (حتى تضع الحرب أوزارها) وإلى حال النقص أشار سبحانه بقوله :

(ذلك) أى هذا الذى أمرتكم به من قتل المشركين إن لقيتموهم في حرب وشدة وثاقهم في أسرمهم والمن والغداء حتى تضع الحرب أوزارها — هو الحق الذى أمركم به ربكم ، وهو السنة التى جرى عليها لإصلاح حال عباده ، وهى التى ستبقى السنة الطبيعية بين الأمم مادامت فى طور طفولتها ، حتى يتم نضجها العقلى والخلقى فتضع الحرب أوزارها ، إذ لا يكون هناك حاجة إليها ، لأن العالم كله يكون كأسرة واحدة ، سعادته بسعادة أفرادها جميعا ، وشقاؤه بشقاؤهم .

ثم بين أن هذه هى السنة التى أرادها الله من حرب المشركين ، ولو شاء لانتقم منهم بلا حرب ولا قتال ، فقال :

(ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض) أى ولو يشاء ربكم لانتصر من هؤلاء المشركين بعقوبة عاجلة ، وكفأكم أمرهم ، ولكنه أراد أن يبلو بعضكم ببعض فيختبركم بهم ، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين ويبلوهم بكم ، فيعاقب بأيديكم من شاء ، ويتعظ منهم من شاء بمن أهلك بأيديكم حتى ينيب إلى الحق .

وفى الجهاد تقوية لأبدانكم ، ورفق لعقولكم ، ونفاذ لكلماتكم ، وجمع لشملكم بما ترون من اتحاد عدوكم ، وبه ترقى الزراعة والتجارة والصناعة وجميع العلوم ، إذ لا يتم حرب ولا غلبة إلا بها ، وهكذا ترقى حال الأعداء ، فيتسع العمران ، وتم المدينة ، ويرقى النوع الإنسانى ، ولا يعيش فى هذا الوسط الصاحب إلا الصالح للبقاء ، والضعيف من الطرفين هالك ، وهذه هى سنة الله فى الكون .

ثم ذكر جزاء المجاهدين في سبيل الله فقال :

(والذين قتلوا في سبيل الله فلن يغفر الله لهم) أى والذين جاهدوا أعداء الله في دين الله وفي نصرته ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم من الهدى ، فلن يجعل أعمالهم التي عملوها في الدنيا ضائعة سدى ؛ كما أذهب أعمال الكافرين وجعلها عديمة الجدوى .

روى أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يعطى الشهيد ست خصال . عند أول قطرة من دمه تكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفرع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويحلى حلة الإيمان » .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أُحُد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب ، وقد فشت فيهم الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون : اعلُّ هُبُل (أكبر أصنامهم) ونادى المسلمون : الله أعلى وأجل . وقال المشركون : يوم بيوم بدر والحرب سجال . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قولوا لاسواء . قتلنا أحياء عند ربهم يرزقون ، وقتلناكم في النار يمدبون ، فقال المشركون : إن لنا العزى ولا عزى لكم . فقال المسلمون : الله مولانا ولا مولى لكم » .

ثم فسر ما سلف بقوله :

(سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم) أى سيوقفهم الله للعمل بما يرضيه ويحبه ، ويصونهم مما يورث الضلال ، ويصلح شأنهم في العقبى ، ويقبل أعمالهم ، ويجعل لكل منهم مقراً في الجنة لا يضل في طلبه .

لا جرم أن لكل امرئ في الحياة عملاً يستوجب حالاً في الآخرة لا يتعداها ، كما يحصل كل من نال إجازة في علم أو صناعة على عمل يشاكل إجازته في قوانين الدولة .

والناس في الآخرة أشبه بأنواع السمك في البحر المالح وأنواع الطير في جو السماء لكل منها جو لا تتعداه ، هكذا لكل من الصالحين درجة في الآخرة لا يتعداها ، بل يجد نفسه مقهوراً على البقاء فيها ؛ كما أن السمك منه ما هو قريب من سطح الماء ، ومنه ما يوجد تحت سطح الماء بمئات الأمتار أو آلافها ، وإلى ذلك يشير قوله :
« وَالِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا » .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : يُهْدَى أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله لهم منها ، لا يخطئون ؛ كأنهم ساكنوها منذ خلقوا ، لا يستدلون عليها .

وفي الخبر : « لأحدم بمنزله في الجنة أعرف منه بمنزله في الدنيا » .

ثم وعدم سبحانه بنصرهم على أعدائهم إذا نصروا دينه بقوله :

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنصَرُوا لِلَّهِ تَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ) أى إن تنصروا دين الله ينصركم على عدوكم ، ويثبت أقدامكم في القيام بحقوق الإسلام ومجاهدة الكفار ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة المشركين هي السفلى :

وبعد أن ذكر جزاء المجاهدين أعقبه بجزاء الكافرين فقال :

(وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَّأْ لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ) أى والذين كفروا بالله وجحدوا توحيدهم فخرى يا لهم وشقاء ، وأبطل الله أعمالهم وجعلها على غير هدى واستقامة ، لأنها عملت للشيطان ، لاطاعة للرحمن .

ثم بين سبب ذلك الإضلال فقال :

(ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أُنزِلَ اللَّهُ فَاحْبَطُوا أَعْمَالَهُمْ) أى ذلك الذى فعلنا بهم من التعس والإضلال الأعمال ، من أجل أنهم كرهوا كتابنا الذى أنزلناه على نبينا محمد

صلى الله عليه وسلم فكذبوا به وقالوا هو سحر مبين ، فن ثم أحبط أعمالهم التي عملوها في الدنيا وأصلام سميرا .
وقصارى ذلك — إن كل ماعلوه في الدنيا من صالح الأعمال فهو باطل ، لعدم الإيمان الذى هو أساس قبول الأعمال .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ
دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا
وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ
وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ (١٢) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ
هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَ كُنَّا لَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣)
أَمْ مَنْ كَانَ عَلَى بَيْتَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زِينَ لَهُ سُوءَ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا
أَهْوَاءَهُمْ (١٤) .

المعنى الجملى

بعد أن نعى سبحانه على الكافرين مغبة أعمالهم ، وأن النار مشوى لهم —
أردف هذا أمرهم بالنظر في أحوال الأمم السالفة ورؤية آثارها ، لما للمشاهدات
الحسية من آثار في النفوس ، ونتائج لدى ذوى العقول ، إذا تدبروها واعتبروا بها .

الإيضاح

(أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) أى أفلم
يسر هؤلاء المكذبون محمدا صلى الله عليه وسلم ، المنكرون ما أنزلنا عليه من

الكتاب — في الأرض فيروا نعمة الله التي أحلها بالأمم الغابرة ، والقرون الخالية ، حين كذبوا رسلهم كعاد وثمود ، ويتعظوا بذلك ، ويحذروا أن تفعل بهم كما فعلنا بمن قبلهم .

ثم ذكر ما فعله بهم فقال :

(دمر الله عليهم) يقال دمره: أهلكه ، ودمر عليه: أهلك ما يختص به ، أى أهلك ما يختص بهم من الأهل والولد والمال ، أفلا يعتبر هؤلاء بما حل بمن قبلهم فيعلموا أن ما حاق بهم من سوء المنقلب — لا بد أن يحل بهم مثله على حسب ما وضعه سبحانه من السنن في الأمم المكذبة لرسولها ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وهذا ما عنناه سبحانه بقوله :

(والكافرين أمثالها) أى ول هؤلاء الكافرين السائرین سيرتهم أمثال هذه العاقبة التي ترون آثارها .

ثم بين السبب في حلول أمثال هذه العاقبة بهم فقال :

(ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم) أى هذا الذى فعله بهم من التدمير والهلاك ، ونصر المؤمنين وإظهارهم عليهم بسبب أن الله ولى من آمن به وأطاع رسوله ، وأن الكافرين لا ناصر لهم ، فيدفع ما حل بهم من العقوبة والعذاب .

ونفى المولى عنهم هنا لا يخالف إثباته في قوله : « ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقُّ » لأن المراد به هناك المالك لأموهم ، المتصرف في شئونهم .

قال قتادة : نزلت يوم أحد والنبي صلى الله عليه وسلم في الشعب ، إذ صاح المشركون : يوم بيوم ، لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « قولوا لله مولانا ولا مولى لكم » وقد تقدم هذا برواية أخرى .

وبعد أن بين حالى المؤمنين والكافرين فى الدنيا، بين حالهم فى الآخرة فقال :
 (إن الله يدخل الذين آمنوا و عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار)
 أى إن الله ذا الجلال والكمال يدخل يوم القيامة من آمنوا به وصدقوا رسوله و عملوا
 صالح الأعمال — بساتين تجري من تحت قصورها الأنهار كرامة لكم على إيمانهم
 بالله ورسوله واليوم الآخر .

(والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام) أى والذين جحدوا
 توحيد الله وكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم يتمتعون فى هذه الدنيا بمحطامها ورياشها
 وزينتها الفانية ، ويأكلون فيها غير مفكرين فى عواقبهم ومنتهى أمورهم ،
 ولا معتبرين بما نصب الله خلقه فى الآفاق والأنس من الحجج المؤدية إلى معرفة
 توحيده وصدق رسوله ، فمثلهم مثل البهائم تأكل فى معالها ومسارحها ، وهى
 غافلة عما هى بصدده من النحر والذبح ، فكذلك هؤلاء يأكلون ويتلذذون وهم
 ساهون لاهون عن عذاب السعير .

(والنار مشوى لهم) أى ونار جهنم مسكن ومأوى لهم يصيرون إليها بعد مماتهم .
 والغلاصة --- إن المؤمنين عرفوا أن نعم الدنيا ظل زائل فتركوا الشهوات ،
 وتفرغوا للصالحات ، فكانت عاقبتهم النعيم المقيم فى مقام كريم ، وإن الكافرين
 غفلوا عن ذلك فرتعوا فى الدمن كالبهائم حتى ساقهم الخلدان ، إلى مقرهم من درك
 النيران ، أعادنا الله منها .

وبعد أن ضرب لهم المثل بقوله : « أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ » ولم يعتبروا به
 وذكر لهم ماتقدم من الأدلة على وحدانيته — ضرب المثل لنيبه تسليية له عما يلاقى
 من غنت قومه وجحودهم فقال :

(وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكتناهم فلا ناصر
 لهم) أى وكثير من الأمم التى كان أهلها أشد بأساً وأكثر جماعاً ، وأعدّ عديداً من

أهل مكة الذين أخرجوك — أهلكتناهم بأنواع العذاب ولم يجدوا ناصرا ولا معيناً يدفع عنهم بأسنا وعذابنا ، فاصبر كما صبر قبلك أولو العزم من الرسل ، ولا تبخع نفسك عليهم حسرات ، قاله مظهرك عليهم ، ومهلكهم كما أهلك من قبلهم إن لم ينبؤوا إلى ربهم ، ويشوبوا إلى رشدهم .

وغير خافٍ ما في هذا من التهديد الشديد ، والوعيد الأكد لأهل مكة .
أخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس « أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال : أنت أحب بلاد الله إلي ، وأنت أحب بلاد الله إلي . ولولا أن أهلك أخرجوني لم أخرج منك ، وأعدى الأعداء من عدا على الله في حرمه ، أو قتل غير قاتله ، أو قتل بدحول (ثارات) الجاهلية ، فأنزل الله سبحانه على نبيّه (وكأين من قرية) » الآية .

ثم ذكر الفارق بين حالى المؤمنين والكافرين والسبب فى كون هؤلاء فى أعلى عليين وأولئك فى أسفل سافلين ، فقال :

(أفمن كان على بينة من ربه كنزى له سوء عمله واتبعوا أهواءهم ؟) أى أفمن كان على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه بما أنزله فى كتابه من الهدى والعلم ، وبما فطره الله عليه من الفطرة السليمة ، فهو على علم بأن له رباً يجازيه على طاعته وإياه بالجنة ، وعلى إساءته ومعصيته إياه بالنار — كمن حسن له الشيطان قبيح عمله ، وأراه إياه جميلاً فهو على العمل به مقيم ، وعلى السير على نهجه دائم ، واتباع هواه وجمحت به شهواته ففطقت يعدو فى المعاصى ، ويحجب فيها ويضع ، غير ملتفت إلى واعظ أو زاجر ؟

والخلاصة — أيستوى الفريقان . من كان ثابتاً على حجة بينة من عند ربه وهى كتابه الذى أنزله على رسوله وسائر الحجج التى أقامها فى الآفاق والأنفس . ومن زين له الشيطان سيء أعماله من الشرك وسائر المعاصى كإخراجك من قرينتك ،

واتباع هواه من غير أن يكون له شبهة يركن إليها تعاضد ما يدعيه ، وتطمئن إليها نفسه في الدفاع عما يدعى به ؟ كلاًهما لا يستويان .

ونحو الآية قوله : « أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى » وقوله : « لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ » .

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ، وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) .

شرح المفردات

مثل الجنة : أى صفتها ، آسن : أى متغير الطعم والريح لطول مكثه ، وفعله آسن (بالفتح من بابى ضرب ونصر ، وبالكسر من باب علم) لذة تأنيث لذة ، وهو اللذيذ ، مصفى : أى لم يخالطه الشمع ولا فضلات النحل ولم يمت فيه بعض نحله كعسل الدنيا ، حمياً : أى حاراً ، والأمعاء : واحدها معى (بالفتح والكسر) وهو ما فى البطن من الحوايا .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه الفارق بين الفريقين فى الاهتداء والضلال — ذكر الفارق بينهما فى مرجعهما وما لهما ، فذكر ما للأولين من النعيم المقيم واللذات التى لا يدركها

الإحصاء ، وما للآخرين من العذاب اللازب في النار وشرب الماء الحار الذي يقطع الأمعاء .

الإيضاح

(مثل الجنة التي وعد المتقون) أى وصف الجنة التي وعدها الله من اتقى عقابه فأدى فرائضه واجتنب نواهيه — ما استسهـمونه بعد .

ثم فسر هذه الصفة بقوله :

(١) (فيها أنهار من ماء غير آسن) أى فيها أنهار جارية من مياه غير متغيرة الطعم والريح لطول مكثها وركودها .

(٢) (وأنهار من لبن لم يتغير طعمه) أى لم يحمض ولم يصر قارصا ولا حازرا كألبان الدنيا ، وتغير الريح لا يفارق تغير الطعم .

(٣) (وأنهار من خمر لذة للشاربين) أى وفيها أنهار من خمر للذيدة لهم ، إذ لم تدنسها الأرجل ، ولم ترتقها (تكدرها) الأيدي كخمر الدنيا ، وليس فيها كراهة طعم وريح ، ولا غائلة سكر وخار كخمر الدنيا ، فلا يتكرهها الشاربون .

(٤) (وأنهار من عسل مصفى) أى وفيها أنهار من عسل قد صفى من القذى وما يكون في عسل أهل الدنيا قبل التصفية من الشمع وفضالات النحل وغيرها .

وبدى بالماء لأنه لا يستغنى عنه في الدنيا ، ثم باللبن لأنه يجرى مجرى المطعوم لكثير من العرب في غالب أوقاتهم ، ثم بالخمر لأنه إذا حصل الرى والشبع تشوقت النفس لما يستلذ به ، ثم بالعسل لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم .

أخرج أحمد والترمذى وصححه وابن المنذر وابن مردويه والبيهقى عن معاوية ابن حيدة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « في الجنة بحر اللبن ، وبحر الماء ، وبحر العسل ، وبحر الخمر ثم تشقق الأنهار منها بعد » .

(٥) (ولهم فيها من كل الثمرات) أى ولهم فيها أنواع من الثمار المختلفة الطعوم والروائح والأشكال .

(٦) (ومغفرة من ربهم) فهو يرضى عنهم بما أسلفوا من عمل ، ويتجاوز عن هفواتهم التى اقترفوها فى الدنيا .

وبعد أن ذكر ما وعد به المتقين من النعيم — ذكر ما أوعده الكافرين من العذاب الأليم فقال :

(١) (كن هو خالد فى النار) أى أم من هو خالد فى الجنة على حسب ماجرى به الوعد كن هو خالد فى النار كما نطق به الكتاب فى قوله : « وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ » أى ليس هؤلاء كأولئك فليس من هو فى الدرجات العلى ، كن هو فى الدرجات السفلى .

(٢) (وسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم) أى وسقوا ماء حارًا لا يستساع ، وإذا دنوا منه شوى وجوههم وقطع أمعاءهم .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ
أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا
أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)
فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ
إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرُهُمْ ؟ (١٨) فَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِدُنْبِكَ
وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وِمَثْوَاكُمْ (١٩) .

شرح المفردات

أنفًا : أى قبيل هذا الوقت، مأخوذ من أنف الشيء لما تقدم منه ، وأصل ذلك الأنف بمعنى الجارحة ثم سمي به طرف الشيء ومقدمه وأشرفه ، آتاهم : أى ألهمهم ، بغتة : أى فجأة ، والأشراط : العلامات ، واحدها شرط (بالسكون والفتح) ومنه أشرط الساعة ، قال أبو الأسود الدؤلى :

فإن كنت قد أزمعت بالصّرْم بيننا فقد جعلت أشرط أوله تبدو

فأنى لهم : أى كيف لهم ، ذكراهم : أى تذكرهم ، متقلبكم : أى تقلبكم لأشغالكم فى الدنيا ، ومثواكم : أى ماواكم فى الجنة أو النار .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال المشركين وبين سوء مقببتهم — أردف هذا بيان أحوال المنافقين الذين كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمعون كلامه ولا يعونه تهاونا واستهزاء به حتى إذا خرجوا من عنده قالوا للواعين من الصحابة : ماذا قال قبل افتراقنا وخروجنا من عنده؟ — وهؤلاء قد طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ، ومن ثم تشاغلوهم عن سماع كلامه ، وأقبلوا على جمع حطام الدنيا ، ثم أعقبه بذكر حال من اهتدوا ، وألهمهم ربهم ما يتقون به النار ، ثم عَنَّف أولئك المكذبين وذكر أن عليهم أن يراعوا قبل أن تجيء الساعة التى بدت علاماتها بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم والذكري لا تنتفع حينئذ ، ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالثبات على ما هو عليه من وحدانية الله وإصلاح نفسه بالاستغفار من ذنبه ، والدعاء للمؤمنين والمؤمنات ، والله هو العليم بمتصرفكم فى الدنيا ومصيركم إلى الجنة أو النار فى الآخرة .

الإيضاح

(وممنهم من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً؟) أى ومن الناس منافقون يستمعون فلا يعنون ماتقول ، ولا يفهمون ماتتلو عليهم من كتاب ربك ، تغافلا عما تدعو إليه من الإيمان حتى إذا خرجوا من عندك قالوا لمن حضر مجلسك من أهل العلم بكتاب الله: ماذا قال محمد قبل أن نفارق مجلسه؟ وما مقصدهم من ذلك إلا السخرية والاستهزاء بما يقول ، وأنه مما لا ينبغي أن يؤثبه به ، أو يلقى لمثله سمع .

روى مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب ويعيب المنافقين ، فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود ، استهزاء : ماذا قال محمد آنفاً؟ قال ابن عباس : وقد سئلت فيمن سئل .

ثم بين سبب استهزائهم وتهاونهم بما سمعوا فقال :

(أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) أى هؤلاء الذين هذه صفتهم — هم الذين ختم الله على قلوبهم ، فلا يهتدون للحق الذى بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم ، واتبعوا شهواتهم وما دعوتهم إليه أنفسهم ، فلا يرجعون إلى حجة ولا برهان .

ثم ذكر سبحانه أصداد هؤلاء بقوله :

(والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) أى والذين اهتدوا بالإيمان واستماع القرآن زادهم الله بصيرة وعلماً وشرح صدورهم ، وألهمهم رشدهم ، وأعانهم على تقواه . ثم بين أنهم فى غفلة عن النظر والتأمل فى عاقبة أمرهم فقال :

(فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون) أى إنه بعد أن قامت الأدلة على وحدانية الله وصدق نبوته رسوله وأن البعث حق وأن الله يهلك

من كذب رسله ويحل بهم الوبال والنكال كما شاهدوا ذلك فيمن حولهم من الأمم التي أهلها الله لتكذيب رسله ، ولم يبق منها إلا آثارها ، ولم يقدم كل ذلك شيئاً ولم يتعظوا ولم يؤمنوا — فماذا ينتظرون للعظة والاعتبار ؟ لا ينتظرون إلا أن تأتيهم الساعة بغتة إذ جاءت علامتها ، ولم يبق من الأمور الموجبة للتذكر والعظة للإيمان بالله سوى ذلك .

والخلاصة — إن البراهين قد نصبت ، والأدلة قد وفتحت على وجوب الإيمان بالله ، وصدق رسوله ، والبعث والنشور ، وهم لم يؤمنوا — فلا يتوقع منهم إيمان بمدئذ إلا حين مجيء الساعة بغتة ، وها هي ذى أشراتها قد ظهرت ، ومقدماتها قد بدأت ، ولم يأبهوا بها ، ولا فكروا في أمرها ، والمراد بيان أنهم بلغوا الغاية في العناد ، والنهاية في الاستكبار .

ثم أظهر خطأهم ، وحكم بأن رأيهم آفئ في تأخيرهم التذكر إلى قيام الساعة ، بيان أن التذكر لا يجدى نفعاً حينئذ فقال :

(فأني لهم إذا جاءتهم ذكراهم؟) أي فن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة ؟ فإن الذكرى لا تنفع حينئذ ، ولا تقبل التوبة ، ولا ينفع الإيمان .

ونحو الآية قوله : «يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى» .

وبعد أن أبان أن الذكرى لا تنفع إذا انقضت هذه الدار التي جعلت للعمل — أمر رسوله بالثبات على ما هو عليه ، والاستغفار ، لأتباعه فقال :

(فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك والمؤمنين والمؤمنات) أي إذا علمت سعادة المؤمنين وعذاب الكافرين ، فاستمسك بما أنت عليه من موجبات السعادة ، واستكمل حظوظ نفسك بالاستغفار من ذنبك (وذنوب الأنبياء أن يتركوا ما هو الأولى بمنصبتهم الجليل) وتوجه بالدعاء والاستغفار لأتباعك من المؤمنين والمؤمنات .

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم

اغفرلى خطيئتي وجهلى وإسرافي فى أمرى وما أنت أعلم به منى ، اللهم اغفرلى هزلى
وجدى ، وخطئى وعمدى ، وكل ذلك غندى .

وثبت أنه كان يقول فى آخر الصلاة : « اللهم اغفرلى ما قدمت وما أخرت ،
وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت وما أنت أعلم به منى ، أنت إلهى لا إله
إلا أنت » .

وجاء أيضا أنه قال « أيها الناس توبوا إلى ربكم ، فإني أستغفر الله وأتوب إليه
فى اليوم أكثر من سبعين مرة » .

وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :
« عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثروا منها ، فإن إبليس قال : إنما أهلكت
الناس بالذنوب ، وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم
بالأهواء فهم يحسبون أنهم مهتدون » .

وفى الأثر المروى « قال إبليس وعزتك وجلالك لأزال أغويهم مادامت أرواحهم
فى أجسادهم ، فقال الله عز وجل « وعزقى وجلالى لأزال أغفر لهم ما استغفرونى » .

ثم رغبهم سبحانه فى امتثال ما يأمرهم به ، ورهبهم عما ينهاهم عنه فقال :
(والله يعلم مثقلبكم ومثواكم) أى والله يعلم تصرفكم فى نهركم ومستقركم فى ليلكم ،
فاتقوا الله واستغفروه ، فهو جدير بأن يتقى ويخشى ، وأن يستغفر ويسترحم .

ونحو الآية قوله : « وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ »
وقوله : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا
كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » .

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ، فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ
وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ

الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ، فَإِذَا
عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ
أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ
فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) .

شرح المفردات

لولا: كلمة تفيد الحث على حصول ما بعدها ، أى هلا أنزلت سورة فى أمر الجهاد ،
محكمة: أى بيّنة واضحة لاحتمال فيها لشيء آخر، مرض: أى ضعف ونفاق ، نظر المغشى
عليه من الموت: أى كما ينظر المصروع الذى لا يظرف بصره ، جنباً منهم وهلما ،
أولى لهم: أى فويل لهم ، وهو من الولّى بمعنى القرب ، والمراد الدعاء عليهم بأن يليهم
المكروه ويقرب منهم ، عزم الأمر: أى جدّ أوّل الأمر ، عسى كلمة تدل على توقع
حصول ما بعدها ، توليتم: أى توليتم أمور الناس . وتأمرتم عليهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزّ اسمه حال المنافقين والكافرين والمؤمنين حين استماع آيات
التوحيد والحشر والبعث وغيرها من الأمور التى أوجب الدين علينا اعتقادها بقوله
فيا سلف « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » وقوله « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى » —
أردف هذا فذكر حالهم فى الآيات العملية كآيات الجهاد والصلاة والزكاة ونحوها ،
فأبان أن المؤمنين كانوا ينتظرون مجيئها ويرجون نزولها ، وإذا تأخرت كانوا
يقولون : هلا أمرنا بشيء من ذلك ، لينالوا ما يقرّبهم من ربهم ويحصلوا على رضوانه ،
والزلفى إليه ، وأن المنافقين كانوا إذا نزل شيء من تلك التكاليف شق عليهم ونظروا
نظرة المصروع الذى يشخص بصره خوفاً وهلماً . ثم ذكر نتيجة لما سلف ، وفذلكة

لما تقدم، فأعقب هذا بأن الله طرد المنافقين وأبعدهم من الخير، ومن قبل هذا أصحهم فلا يسمعون الكلام المستبين، وأعمى أبصارهم فلا يسيرون على الصراط المستقيم، أما المؤمنون فقد رضى الله عنهم وأرضاهم، ونالوا محبته، ودخلوا جنته، فضلا منه ورحمة، والله ذو الفضل العظيم.

الإيضاح

(ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة، فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر الغشى عليه من الموت) أى إن المؤمنين المخلصين في إيمانهم يشتاقون للوحى، ونزول آيات الجهاد حرصا على ثوابه ويقولون: هلا أنزلت سورة تأمرنا به، فإذا أنزلت سورة واضحة الدلالة فى الأمر به فرحوا بها، وشق ذلك على المنافقين، وشخصت أبصارهم هلعا وجينا من لقاء العدو ونظروا معتاطين بتحديد وتحديق كمن يشخص بصره حين الموت.

ونحو الآية قوله «ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية، وقالوا ربنا لم كتب علينا القتال؟ لولا أخرتنا إلى أجل قريب» .

ثم هددهم وتوعدهم فقال:

(فأولى لهم) أى فالموت أولى لمثل هؤلاء المنافقين، إذ حياتهم ليست فى طاعة الله، فالموت خير منها، وقد يكون المعنى على التهديد والوعيد والدعاء عليهم بالهلاك، فكأنه قيل: أهلكهم الله هلاكا أقرب لهم من كل شر وهلاك، فهو نحو قولهم فى الدعاء «بُعْدًا لَهُ وَسُخْمًا» .

قال الأصمعي معناه : قاربه ما يهلكه أى نزل به ، وأنشد :

فَعَادَى بَيْنَ هَادِيَتَيْنِ مِنْهَا وَأُولَى أَنْ يَزِيدَ عَلَى الثَّلَاثِ
أى قارب أن يزيد .

(طاعة وقول معروف) أى طاعة الله وقول معروف أمثل لهم وأحسن مما هم فيه من الملعع والجزع والجنين من لقاء العدو ، فمتاع الحياة الدنيا متاع قليل وظل زائل والآخرة خير لمن اتقى .

(فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم) أى فإذا حضر القتال كرهوه وتحلفوا عنه خوفاً وقرراً ، ولو صدقوا فى إيمانهم واتباعهم للرسول ، وأخلصوا النية فى القتال لكان خيراً لهم عند ربهم ، إذ ينالون الثواب والزلفى عند ربهم ويعطيهم ما تقرّ به أعينهم ويدخلهم جنات النعيم .

ثم خاطب أولئك المناققين خطاب توبيخ وتأنيب فقال :

(فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) أى لعلمكم لما عهد فيكم من الحرص على الدنيا وزخرفها « إذ قد أمرتم بالجهاد الذى هو الوسيلة إلى الثواب فكروهتموه ، وظهر عليكم ما ظهر من الخوف والملعع والتشبث بالبقاء فى هذه الحياة والتكالب على زينتها » إن أتم توليتم أمور الناس وصرتم عليهم أمراء أن تفسدوا فى الأرض بالبغي وسفك الدماء ، وتقطعوا أرحامكم فتعودوا إلى تباغض الجاهلية من إغارة بعضكم على بعض ونهب الأموال وسفك الدماء .

والخلاصة — إنه لا عجب بعد أن صدر منكم ما صدر من كراهة الدفاع عن حوزة الإسلام — أن تعيدوا أحوال الجاهلية جَزَعَةً إذا صرتم أمراء الناس وولاتهم .
وبعد أن ذكر هنتاتهم بين سببها فقال :

(أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) أى فهولاء هم الذين أبعدهم الله من رحمته ، فأصمهم عن الانتفاع بما سمعوا ، وأعمى أبصارهم عن الاستفادة

مما شاهدوا من الآيات المنصوبة في الأنفس والآفاق ، فلم يكن سماعهم سماع إدراك ، ولا إبصارهم إبصار اعتبار .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فأخذت بحقو الرحمن فقال مَهْ ، قالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال نعم ؛ أما ترصين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ، قالت بلى ، قال : فذلك لك ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرءوا إن شئتم (فَهَلْ عَسَيْتُمْ) الآية . » أخرجه البخارى ومسلم وغيرها ، وقد ورد أحاديث كثيرة في صلة الرحم .

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدَوْا
عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ، الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى
لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ
الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يُضْرِبُونَ
وُجُوهُهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا
رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ
يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ قَلْعَ رَفْتِهِمْ بِسِيَاحِهِمْ
وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى
تَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ (٣١) .

شرح المفردات

يتدبرون القرآن : أى يتصفحون ما فيه من المواعظ والزواجر حتى يقلعوا عن الوقوع فى الموبقات ، ارتدوا على أديبارهم : أى رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ، سؤل لهم : أى سهل لهم وزين ، وأملى لهم : أى مد لهم فى الأمانى والآمال ، يضربون وجوههم وأديبارهم : أى يتوفونهم وهم على أهول الأحوال وأفظعها ، والأضغان : واحداً ضغن ، وهو الحقد الشديد ، وتضاغن القوم واضطغنوا إذا أبطنوا الأحقاد ، قال :

قل لابن هندٍ ما أردتَ بمنطقي ساء الصديق وشيّد الأصفانا ؟

لأريناكم : أى لعرفناكم ، والسميى : العلامة ، ولحن القول : أسلوبه بامالته عن وجهه من التصريح إلى التعريض والتورية ، ولنبلونكم : أى لنختبرنكم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن أولئك المنافقين أبعدهم الله عن الخير فأصمهم فلم ينتفعوا بما سمعوا ، وأعمى أبصارهم فلم يستفيدوا بما أبصروا - بين أن حالهم دائرة بين أمرين : إما أنهم لا يتدبرون القرآن إذا وصل إلى قلوبهم ، أو أنهم يتدبرون ولكن لا تدخل معانيه فى قلوبهم لكونها مغلقة ؛ ثم ذكر أنهم رجعوا إلى الكفر بعد أن تبين لهم الهدى بالدلائل الواضحة ، والمعجزات الباهرة ، وقد زين لهم الشيطان ذلك وخدعهم بباطل الأمانى ، ثم بين سبب ارتدادهم وهو قولهم لبنى قريظة والنضير من اليهود : سنطيعكم فى بعض أحوالكم وهو ما حكى عنهم فى قوله : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب إن أخرجتم لنخروجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم » والله يعلم ما يصدر عنهم من كل قبيح .

ثم أردف هذا بذكر ما يصادفونه من الأهوال إذا جاءتهم الملائكة لقبض
أرواحهم بسبب اتباعهم أهواءهم وعمل ما يفضب ربهم ، ومن ثم أحبط أعمالهم ،
وهل يعتقد هؤلاء المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بلى إنه سيوضح
ذلك لذوى البصائر ، ولو نشاء لأريناك أشخاصهم فمرفتهم عيانا ، ولكن لم نفعل
ذلك ، سترأ منا على عبادنا وحملنا للأمور على ظاهرها السلامة ، ورداً للسرائر إلى عالمها ،
وإنك لتعرفتهم فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم بمغازي يضعونها
أثناء حديثهم ، وقد كان يفهمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويفهم مراميها
فلا تخفى عليه .

ثم ذكر أنه يتلى عباده بالجهاد وغيره ليعلم الصادق في إيمانه ، الصابر على مشاق
التكاليف من غيره ، ويختبر أعمالهم حسناتها وسيئها فيجازيهم بما قدموا « قَنَ يَعْمَلُ
مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

الإيضاح

(أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟) أى أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون
مواعظ الله التي وعظ بها في آى كتابه ، ويتفكرون في حججه التي بينها في تنزيهه
فيعلموا خطأ ما هم عليه مقيمون ، أم هم قد أقفل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل
في كتابه من العبر والمواعظ ؟ .

والخلاصة — إنهم بين أمرين كلاهما شر ، وكلاهما فيه الدمار والمصير إلى النار ،
فإما أنهم يعقلون ولا يتدبرون ، أو أنهم سلبوا العقول فهم لا يعنون شيئا .
ولما أخبر بإقفال قلوبهم بين منشأ ذلك فقال :

(إن الذين ارتدوا على أديبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى الشيطان سؤل لهم
وأملى لهم) أى إن الذين رجعوا القهقرى على أعقابهم كفاراً من بعد ماتبين لهم الهدى

وقصد الدبيل ، فعرفوا واضح الحجج ثم آثروا الضلال على الهدى عنادا لأمر الله -
الشیطان زين لهم ذلك وخذعهم بالأمال ، وحسن لهم مافی الدنيا من لذة يتمتعون
بها إلى حين ثم يعودون كما كانوا مؤمنين ، إلى نحو ذلك من وساوسه التي لا تدخل
تحت الحصر ، ولا يبلغها العذ .

ثم ذكر كيف إنهم ضلوا فقال :

(ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم
إسرارهم) أى ذلك الضلال من قبل أنهم مالوا اليهود من بنى قريظة والنضير
وناصحوهم سرا على المؤمنين كما هو شأن المنافقين في كل زمان ، والله يعلم ما يسرون
وما يخفون وهو مطلع عليهم وعالم بهم .

ولا يخفى مافی ذلك من الوعيد وشديد التهديد .

ونحو الآية قوله : « وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ » .

ثم ذكر أن هذه الحيل إن أجدت في حياتهم فماذا هم فاعلون حين وفاتهم فقال :
(فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم) أى فكيف
يفعلون إذا جاءتهم الملائكة الموت لقبض أرواحهم على أقبح الوجوه وأفظعها ، وقد
مثل ذلك بحال يخافونها في الدنيا ، ويجنبون عن القتال من أجلها ، وهو الضرب
على الوجوه والأدبار ، إذ في يوم الوفاة لانصرة لهم ولا مفر ، فكيف يحترزون من
الأذى ، ويتعدون من العذاب .

ثم بين سبب التوفى على تلك الحال الشنيعة فقال :

(ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم) أى ذلك
الهلول الذي يرويه من أجل أنهم انهمكوا في المعاصى وزئبت لهم الشهوات ، وكرهوا
ما يرضى الله من الإيمان به والعمل على طاعته والإخلاص له في السر والعلن ، فأحبط
مأعملوه من البر والخير كالصدقات والأخذ بيد الضعيف ومساعدة البائس الفقير

وإغاثة الملهوف إلى نحو أولئك ، إذ هم فعلوه وهم مشركون فلم تكن لله ولا بأمره ، بل بأمر الشيطان للفخر وحسن الأحدوثة بين الناس .

ثم بالغ في توبيخ المنافقين وإظهار خباياهم ، وإعلان نواياهم فقال :

(أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم) أى أم يعتقد أولئك المنافقون الذين في قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين أن الله لا يكشف أستارهم ويبرز أحقادهم ، بلى سيبرزها للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين فلا تبقى مستورة ، وقد أنزل الله في فضائحهم وما يبطنون من الأفعال سورة براءة ، ولذا تسمى الفاضحة كقوله فيهم : « وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ » وقوله : « قُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا » .

ثم أكد ما فهم من سالف الكلام وأنه سيظهرها فقال :

(ولونشاء لأريناكم فلعرفتهم بسيماهم) أى ولونشاء أيها الرسول لعرفناك أشخاصهم ، فعرفتهم عيانا بعلامات هى غالبية عليهم ، ولكنه لم يفعل ذلك فى جميع المنافقين لستر على خلقه ، ورداً للسرائر إلى عالمها ، وحرصا على ألا يؤذى ذوى قرباهم من المخلصين .

(ولتعرفتهم فى لحن القول) أى ولتعرفتهم فيما يداورونه من القول فيعدلون عن التصريح بمقاصدهم إلى التعميرى والإشارة ، وإياه عنى القائل فى مدح محبوبته فقال :

منطق صائب وتلحن أحيانا وخير الحديث ما كان لحننا

يريد أنها تتكلم بشيء وتريد غيره وتعرض فى حديثها فتزيله عن جهته ، لفظتها وذكائها .

وقد كانوا يخاطبون الرسول صلى الله عليه وسلم بألفاظ ظاهرها الحسن وهم يعنون بها القبيح . قال الكلبي : فلم ينكلم بمد نزلها عند النبي صلى الله عليه وسلم منافق

إلا عرفه ، وقال أنس : فلم يخف منافق بعد هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عرفه الله ذلك بوحى أو علامة عرفها بتعريف الله إياه .

وفي الحديث : « ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر » .

وروى أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان قال : ما أسر أحد سريرة إلا أبداه الله على صفحات وجهه وفتحات لسانه .

وقد ثبت في الحديث تعيين جماعة من المنافقين ، فقد روى أحمد عن عقبة ابن عامر قال : « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة حمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن فيكم منافقين فمن سميت فليقم ، ثم قال : قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً ، ثم قال : إن فيكم منافقين فاتقوا الله ، قال فمرّ عمر رضى الله عنه برجل ممن سمى مقنّع قد كان يعرفه ، فقال مالك ؟ فحدثه بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بُعداً لك سائر الدهر » .

ثم وعد سبحانه وأوعد وبشر وأنذر فقال :

(والله يعلم أعمالكم) فيجازيكم بما قدمتم من خير أو شر ، إذ لا يضيع عمل عامل عدلاً منه ورحمة .

(ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبوأخباركم) أى ولنختبرنكم بالأمر بالجهد وسائر التكاليف الشاقة حتى يميز المجاهد الصابر من غيره ، ويعرف ذو البصيرة في دينه من ذى الشك والحيرة فيه ، والمؤمن من المنافق ، ونبوأخباركم فنعرف الصادق منكم في إيمانه من الكاذب .

قال إبراهيم بن الأشعث : كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللهم لا تبتلنا فانك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستاذنا .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ
 مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُحِطُّ بِأَعْمَالِهِمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا
 الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣)
 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ
 اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ
 وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٥)

شرح المفردات

شاقوا الرسول: أى عادوه وخالفوه ، وأصله صاروا فى شِقِّ غير شقه ، فلا تهنوا:
 أى فلا تضعفوا عن القتال ، من الوهن وهو الضعف، وقد وهن الإنسان ووهنه غيره ،
 وتدعوا إلى السلم: أى تدعوا الكفار إلى الصلح خوفا وإظهارا للعجز ، الأعلون:
 أى الغالبون ، والله معكم: أى ناصركم ، لن يترك أعمالكم: أى لن ينقصكموها ؛ من
 وترت الرجل: إذا قتلت له قتيلا من ولد أو أخ أو جيم أو سلبت ماله وذهبت به ،
 فشيبه إضاعة عمل العامل وتعطيل نوابه بوتر الوتر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن المناقين ستفضح أسرارهم ، وأنهم سيلقون شديد الأهوال
 حين وفاتهم — أردف ذلك بذكر حال جماعة من أهل الكتاب وهم بنو قريظة
 والنضير كفروا بالله وصدوا الناس عن سبيل الله وعادوا الرسول بعد أن شاهدوا نعمته
 فى التوراة ، وما ظهر على يديه من المعجزات ، فهؤلاء لن يضرروا الله شيئا بكفرهم ،
 بل يضررون أنفسهم وسيحبط الله مكائدهم التى نصبوها لإبطال دينه ، ثم ذكر

قصص بنى سعد وقد أسلموا وجاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلينا، منّا بذلك عليه، فنهام عن ذلك وبين لهم أن هذا مما يبطل أعمالهم، ثم أعقب هذا ببيان أن من كفروا وصدوا عن السبيل القويم ثم ماتوا وهم على هذه الحال فلن يغفر الله لهم، ثم أرشد إلى أن عمل الكافرين الذي له صورة الحسنات محبط وأن ذنبهم غير مغفور، وبعدئذ أردف هذا بأن الله خاذلهم في الدنيا والآخرة فلا تبالوا بهم ولا تظهروا ضعفًا أمامهم، فإن الله ناصركم ولن يضع أعمالكم.

الإيضاح

(إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم) أى إن الذين جحدوا توحيد الله وصدوا الناس عن دينه الذى بعث به رسوله، وخالفوا هذا الرسول وخاربهوه وآذوه من بعد أن استبان لهم بالأدلة الواضحة، والبراهين الساطعة أنه مرسل من عند ربه - لن يضروا الله شيئاً، لأن الله بالغ أمره وناصر رسوله، ومظهره على من عاداه وخالفه، وسيبطل مكائدهم التى نصبوها، لإبطال دينه ومشاققة رسوله، ولا يصلون بها إلى ما كانوا يبغيون له من الغوائل، وستكون ثمرتها إما قتلهم أو جلاءهم عن أوطانهم والمراد بصد الناس عن سبيل الله، منعهم إياهم عن الإسلام بشتى الوسائل، وعن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم والانصواء تحت لوائه.

ثم أمر سبحانه عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال: (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) أى يأيها الذين صدقوا بوحدانية الله وقدرته وسائر صفات كماله، وصدقوا رسوله فيما جاء على لسانه من الشرائع - أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فى اتباع أوامرها والالتفاء عن نواهيها.

ثم نهاهم عن أن يبطلوا أعمالهم كما أبطلت الكفار أعمالهم فقال :

(ولا تبطلوا أعمالكم) أى لا تبطلوا حسناتكم بالمعاصي قاله الحسن ، وقال الزهري بالكبائر . وقال مقاتل بالذنوب والأذى ، وقال عطاء بالنفاق والشرك ؛ والأولى أن يراد به النهي عن كل سبب من الأسباب التي تكون سببا في إبطال الأعمال كأننا ما كان بلا تخصيص بنوع معين .

وعن أبي العافية قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون أنه لا يضر مع لا إله إلا الله ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزلت هذه الآية ، تخافوا أن يبطل الذنب العمل .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كنا معشر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولا حتى نزلت : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) فقلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ فقلنا الكبائر الموجبات والفواحش ، فكنا إذ رأينا من أصاب شيئا منها ، قلنا قد هلك حتى نزل « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » فكففنا عن القول في ذلك ، وكنا إذا رأينا أحدا أصاب منها شيئا خفنا عليه ، وإن لم يصب منها رجونا له .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال في الآية : من استطاع منكم ألا يبطل عملا صالحا بعمل سوء فليفعل ولا قوة إلا بالله تعالى .

ثم بين سبحانه أنه لا يغفر العصرين على الكفر والصد عن سبيل الله فقال : (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم) أى إن الذين جحدوا توحيد الله وصدوا من أراد الإيمان بالله ورسوله عن ذلك ، وحالوا بينهم وبين ما أرادوه ، ثم ماتوا وهم على كفرهم — فلن يغفر الله سبحانه عما صنعوا ، بل يعاقبهم ويفضحهم به على رؤوس الأشهاد .

وقيد سبحانه عدم المغفرة بالموت على الكفر ، لأن باب التوبة وطريق المغفرة لا يفلقان على من كان حيا .

ثم ذكر سبحانه أن لاجرمة للكافر في الدنيا والآخرة ، فأمر بقتالهم وأرشد إلى أن النصر حليف المؤمنين فقال :

(فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم) أى فلا تضعفوا أيها المؤمنون عن جهاد المشركين وتجنبوا عن قتالهم ، وتدعوا إلى الصلح والمسائلة خوراً وإظهاراً للعجز ، وأتم العالون عليهم والله معكم بالنصر لكم عليهم ، ولا يظلمكم أجور أعمالكم فينقصكم ثوابها .

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ
وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنْ سَأَلَكُمْ هَا تُسْأَلُوهَا فَيُخْفِكُمْ تَبَخُّلُوهَا
وَيُخْرِجُ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا تُمْ هُوَ لَأَنْ تَدْعُونَ لِنُفْسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،
فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخُلُ وَمَنْ يَبْخُلْ فَإِنَّمَا يَبْخُلْ عَنِ نَفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ
وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا
أَمْثَالَكُمْ (٣٨) .

شرح المفردات

كل ما اشتغلت به مما ليس فيه ضرر في الحال ولا منفعة في المال ولم ينمك عن مهام أمورك فهو لعب ، فإن شغلك عنها فهو لهو ، ومن ثم يقال آلات الملاهي ، لأنها مشغلة عن غيرها ، ويقال لما دون ذلك لعب كالعب بالشطرنج والزرّ والحمام ، فيحفكم : أى فيجهدكم بطلبها جميعها ، والإلحاف والإحفاء بلوغ الغاية في كل شيء ؛ يقال أحفاه في المسألة : إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح ، أضغانكم : أى أحقادكم .

المعنى الجملى

بعد أن أمر المؤمنين بترك المعاصى لأنها محبطة لثواب الأعمال الصالحة ، وأمرهم بالتشمير عن ساعد الجد للجهاد ومقاتلة الأعداء نصرةً لدينه ، ووعدهم بأن الله ناصرهم وهم الأعداء ، فلا ينبغي لهم أن يطلبوا المهادنة من العدو خوفاً وجبناً خوفاً على الحياة ولذاتها — أكد هذا المعنى فأبان أنه لا ينبغي لكم أيها المؤمنون الحرص على الدنيا، فإنها ظل زائل وعرض غير باق ، وما هي إلا لذات مؤقتة لا تلبث أن تزول ، وهي مشغلة عن صالح الأعمال فلا يليق بكم أن تعصوا عليها بالنواجذ ، بل اعملوا لما يرضى ربكم يؤتكم أجوركم وهو لا يسألكم من أموالكم إلا القليل النزر الذى فيه صلاح المجتمع للمعونة على القيام بالمرافق العامة ، دنيوية كانت أو دينية ، وهو علم بأنكم أشجحة على أموالكم ، فلو طلبها لبخاتم بها وظهرت أحقادكم على طالبها ، والله قد طلب إليكم الإنفاق فى سبيله والقيام بما تحتاج إليه الدعوة ، فإن مجتمعت فضرر ذلك عائد إليكم ، والله غنى عن معونتكم ، وإن أعرضتم عن الإيمان والتقوى يأت الله بخلق غيركم يقيمون دينه وينصرون الدعوة .

الإيضاح

(إنما الحياة الدنيا لعب وهو) يقول سبحانه حاصلاً عباده المؤمنين على جهاد أعدائه والنفقة فى سبيله وبذل مهجتهم فى قتال أهل الكفر به : قاتلوا أيها المؤمنون أعداء الله وأعداءكم من أهل الكفر ، ولا تدعكم الرغبة فى الحياة إلى ترك قتالهم ، فإنما الحياة الدنيا لعب وهو لا يلبث أن يضمحل ويذهب إلا ما كان منها من عمل فى سبيل الله وطلب رضاه .

ثم رغبتهم فى العمل للآخرة فقال :

(وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم) أى وإن تؤمنوا

ربكم وتتقوه حق تقاته فتؤدوا فرائضه وتجتنبوا نواهيه — يؤتكم ثواب أعمالكم فيعوضكم عنها ما هو خير لكم يوم فقركم وحاجتكم إلى أعمالكم ، وهو لا يأمركم بإخراجها جميعها في الزكاة وسائر وجوه الطاعات ، بل يأمركم بإخراج القليل منها وهو ربع العشر للزكاة مواساة لإخوانكم الفقراء ، ونفع ذلك عائد إليكم .

ثم بين شح الإنسان على ماله وشدة حرصه عليه فقال :

(إن يسألكم فيها فبيحها فبيحكم تبخلوا ويخرج أضغانكم) أى إن يسألكم ربكم أموالكم فيجهدكم بالمسألة ويلحف عليكم بطلبها — تبخلوا بها وتمنعوها إياه ضنا منكم بها ، ولكنه علم ذلك منكم فلم يسألكم فيها فيخرج ذلك السؤال أحقادكم لمزيد حيلكم للمال .

قال قتادة : قد علم الله أن في سؤال المال خروج الأضغان للإسلام من حيث حبة المال بالجلبلة والطبيعة ، ومن نوزع في حبيبه ظهرت طويته التي كان يُبسرّها .
والخلاصة — قد علم الله شح الإنسان على المال فلم يطلب منه إلا النزر اليسير في الصدقات ، وبذل المال في المرافق العامة لإصلاح شئون المجتمع الإسلامى كسدّ الثغور وبناء القناطر والجسور .

ثم أكد ما سلف وقرره بقوله :

(هاتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله) أى هاتم أيها المؤمنون تدعون إلى النفقة في جهاد أعداء الله ونصرة دينه .

(فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأتم الفقراء) أى فمنكم من يبخل عن النفقة في هذا السبيل ، ومن يبخل فإنما ضرر ذلك عائد إلى نفسه ، لأنه ينقصها أجرها من الثواب ، ويبعدها من رضا الله والقرب منه في جنات النعيم ، والله لا حاجة إليه في أموالكم ولا نفقاتكم فهو الغنى عن خلقه ، وخلقته فقراء إليه ، وإنما حضكم على النفقة في سبيله لتنالوا بذلك الأجر والثواب .

(وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم) أى وإن تعرضوا

عن طاعة الله واتباع شرائعه وترتدوا راجعين عنها يهلككم ثم يحيىء بقوم آخرين غيركم يصدقون بها ويعملون بالشرائع التي أنزلها على رسوله ، ويقومون بذلك كله على ما يؤمرون به ، والمراد بهم على ما صح في الحديث أهل فارس .

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي والترمذي عن أبي هريرة قال : « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (وَإِنْ تَنَوَّعُوا) الخ فقالوا يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ، ثم لا يكونون أمثالنا ؟ فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكب سلمان ، ثم قال هذا وقومه ، والذي نفسى بيده لو أن هذا الدين تعلق بالثريا لتناولوه رجال من فارس » .

وقد طعن بعض رواة الحديث فيه وجرحوا بعض رواة ، قال ابن كثير وقد تكلم فيه بعض الأئمة رحمة الله عليهم .

قال الكلبي : شرط في الاستبدال توليهم لكنهم لم يقولوا فلم يستبدل سبحانه قوما غيرهم بهم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ، ونصر دينه بأتباعه المؤمنين ، وجعلهم للعمل بنشره دائمين .

اشتملت هذه السورة السكرية على ثلاثة مقاصد

(١) وصف الكافرين والمؤمنين من أول السورة إلى قوله : « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ » .

(٢) جزاء الفريقين في الدنيا والآخرة من خذلان ونصر ونار وجنة من قوله : « فَإِذَا آتَيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ — إِلَى قَوْلِهِ : وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ » .

(٣) الوعد والتهديد للمنافقين المرتدين من قوله : « وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَّلَتْ سُورَةٌ » إلى آخر السورة .

سورة الفتح

هي مدنية ، وعدة آياتها تسع وعشرون ، نزلت بعد سورة الجمعة .
 ووجه مناسبتها لما قبلها :

- (١) إن الفتح المراد به النصر مرتب على القتال .
- (٢) إن في كل منهما ذكراً للؤمنين والمؤمنين والمقاتلين والمشركين .
- (٣) إن في السورة السالفة أمراً بالاستغفار ، وفي هذه ذكر وقوع الغفرة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا (١) لِيُغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ
 وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا (٢) وَيَنْصُرَكَ
 اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا (٣) .

شرح المفردات

أصل الفتح : إزالة الأغلاق ، وفتح البلد : دخله عنوة أو صلحا ، والمراد بالفتح
 هنا صلح الحديبية (والحديبية بئر) على المشهور ، وهو المروي عن ابن عباس وأنس
 والشعبي والزهري ، وسمى هذا فتحا ؛ لأنه كان سببا لفتح مكة ، قال الزهري : لم يكن
 فتح أعظم من صلح الحديبية ، اختلط المشركون بالمسلمين وسمعوا كلامهم فتمكن
 الإسلام من قلوبهم ، وأسلم في ثلاث سنين خلق كثير كثير بهم سواد الإسلام ،
 فامضت تلك السنون إلا والمسلمون قد جاءوا إلى مكة في عشرة آلاف ففتحوها .
 والخلاصة — إنه كان من نتائج هذا الصلح الأمور الآتية :

- (١) تمّ في هذا الصلح ما يسمونه في العصر الحديث (جسّ النبض) لمعرفة قوة العدو ومقدار كفايته وإلى أي حد هي .
- (٢) معرفة صادق الإيمان من المنافقين كما علم ذلك من الخلفين فيما يأتي .
- (٣) إن اختلاط المسلمين بالمشركين حجب الإسلام إلى قلوب كثير منهم فدخلوا في دين الله أفواجا .
- مبيناً : أي بيناً ظاهر الأمر مكشوف الحال .

المعنى الجملي

نزلت هذه السورة الكريمة حين منصرفه صلى الله عليه وسلم من الحديبية في ذي القعدة من سنة ست من الهجرة ، لما صدّه المشركون عن الوصول إلى المسجد الحرام وحالوا بينه وبين قضاء عمرته ، ثم مالوا إلى المصالحة والمهادنة ، وأن يرجع عامه هذا ثم يأتي من قابل ، فأجابهم إلى ذلك على تكرّره من جماعة من الصحابة كعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فلما نجر هديه حيث أُحصِرَ ورجع أنزل الله تعالى هذه السورة فيما كان من أمره وأمرهم ، وجعل هذا الصلح فتحاً لما فيه من المصلحة ، ولما آل إليه أمره ؛ فقد روى عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال : إنكم تعدون الفتح فتح مكة ، ونحن نعدّ الفتح صلح الحديبية . وروى البخاري « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يسير في بعض أسفاره وعمر بن الخطاب كان يسير معه ليلاً ، فسأله عمر عن شيء فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، ثم سأله فلم يجبه ، فقال عمر : ثكلتك أمك يا عمر ، كررت على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات ، كل ذلك لا يجيبك ، قال عمر : فحركت بعيري حتى تقدمت أمام الناس وخشيت أن ينزل في قرآن ، فابثت أن سمعت صارخاً يصرخ بي ، فقلت لقد خشيت أن يكون نزل في قرآن ، فجئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألت عليه فقال : لقد أنزلت عليّ سورة هي أحب إليّ مما طلعت عليه الشمس ، ثم قرأ « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا » .

وفي صحيح مسلم عن قتادة أن أنس بن مالك حدثهم قال: لما نزلت «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا» — إلى قوله فَوْزًا عَظِيمًا «مرجعه من الحديدية وهم يخالطهم الحزن والكتابة وقد نحرروا الهدى بالحديدية، قال النبي صلى الله عليه وسلم: لقد أنزلت على آية هي أحب إلي من الدنيا جميعها».

هذا، ولما كان لكل عامل ثمرة يجنيها من عمله وغاية يبتغيها منه — كان للنبوة نهاية مطلوبة في هذه الحياة وثمرتها تتبع هذه النهاية، فنهاية أمر النبوة أن تلتئم الأمور ويجتمع شملها، وتكمل نظمها التي تبنى عليها الحياة المهنية حتى يعيش العالم في طمأنينة وهدوء، ولن يتم ذلك إلا بعد بث الدعوة والجهاد العلمي والعملى بقتال الأعداء وخضد شوكتهم، ومتى تم هذا وأتقد المستضعفون ودخل الناس في دين الله أفواجا كرها ثم طوعا انتظم أمر النبوة، وأدى الرسول واجبه واستوجب أن يجني ثمرة أعماله، وهي:

- (١) مغفرة ما فرط من ذنبه مما يعد ذنبا بالنظر إلى مقامه الشريف.
 - (٢) تمام النعمة باجتماع الملك والنبوة بعد أن كانت له النبوة وحدها.
 - (٣) الهداية إلى الصراط المستقيم في تبليغ الرسالة، وإقامة مراسم الرياسة.
 - (٤) المنمة والعزة ونفاذ الكلمة ورهبة الجانب وحى الذمار.
- فهذا الفتح كان كفيلا بهذه الشؤون الأربعة، فكانه سبحانه يقول لرسوله: لقد بلغت الرسالة، ونصبت في العمل، وجاهدت بلسانك وسيفك، وجمعت الرجال والكرع والسلاح، وتلقت وأغلظت، وأخلصت في عملك، وفعلت في وجيز الزمن ما لم ينله مثلك في طويله، حتى تم ما ندبتك له فلتجن ثمار عملك، ولتقر عيننا بما آل إليه أمرك في الدنيا والآخرة.

الإيضاح

(إنا فتحنا لك فتحا مبينا) أى إنا فتحنا لك فتحا ظاهرا لا يحتاج فيه شك بذلك الصالح الذى تم على يدك في الحديدية، ولم يمض إلا القليل من الزمن حتى

دخل الناس في دين الله أفواجا ، وكان هو الشُّلم الذي رقيت فيه إلى فتح مكة ،
وتسابق العرب إلى الدخول في الدين زرافات ووحدانا .

(ليغفر لك الله ماتقدم من ذنبك وما تأخر) أى ليغفر لك ربك جميع ما فرط
منك من الهفوات مما يصح أن يسمى ذنباً بالنظر إلى مقامك الشريف ، وإن كان
لا يسمى ذنباً بالنظر إلى سواك ، ومن ثم قيل : حسنات الأبرار سيئات المقربين .
والمراد غفران الذنوب التي قبل الرسالة والتي بعدها ، قاله مجاهد وسفيان الثوري
وابن جرير والواحدى وغيرهم .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن المغيرة بن شعبه قال : « كان النبي صلى الله
عليه وسلم يصلى حتى ترم قدماه ، فقيل له : أليس قد غفر لك الله ماتقدم من ذنبك
وما تأخر ، قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ » .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة — قلت
لم يجعله علة للمغفرة ، ولكنه جعله علة لاجتماع ماعدد من الأمور الأربعة ، وهى المغفرة
وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز ، كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة
ونصرتك على عدوك ، لنجمع لك بين عز الدارين ، وأغراض الآجل والعاجل اه .
(ويتم نعمته عليك) بإعلاء شأن دينك ، وانتشاره في البلاد ، ورفع ذكرك
في الدنيا والآخرة .

(ويهديك صراطاً مستقيماً) أى ويرشدك طريقاً من الدين لا اعوجاج فيه ،
يستقيم بك إلى رضا ربك .

(وينصرك الله نصراً عزيزاً) أى وينصرك على من ناوأك من أعدائك نصراً
ذا عز بالغ ، لا يدفعه دافع ، لما يؤيدك به من بأس ، وينيلك من ظفر .

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ
 إِيمَانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (٤) لِيُدْخِلَ
 الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرُ
 عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَكَانَ ذَلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا (٥) وَيُعَذِّبُ الْمُنَافِقِينَ
 وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءَ ، عَلَيْهِمْ
 دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ
 مَصِيرًا (٦) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (٧).

شرح المفردات

أنزل السكينة : أى خلقها وأوجدها ، قال الراغب : إنزال الله تعالى نعمته على
 عبد : إعطاؤه إياها ، إما بإنزال الشيء نفسه كالإنزال القرآن ، أو بإنزال أسبابه بالهداية
 إليه كالإنزال الحديد ونحوه . اهـ . والسكينة : الطمأنينة والثبات من السكون ، إيماناً مع
 إيمانهم : أى يقينا مع يقينهم ، جنود السموات والأرض : أى الأسباب السماوية
 والأرضية ، ويكفر عنهم سيئاتهم : أى يغطيها ولا يظهرها ، والسوء : (بالضم والفتح) :
 المساءة ، وظن السوء : أى ظن الأمر السوء فيقولون فى أنفسهم : لا ينصر الله رسوله
 والمؤمنين ، عليهم دائرة السوء : الدائرة فى الأصل الحادثة التى تحيط بمن وقعت
 عليه ، وكثرت استعمالها فى المكروه ، والسوء : العذاب والهزيمة والشر (وهو بالضم
 والفتح لغتان) وقال سيبويه : السوء هنا الفساد ، أى عليهم ما يظنونونه ويتربصونه بالمؤمنين
 لا يتخطاهم ، انهم : أى طردهم طرداً نزلوا به إلى الحضيض ، عزيزاً : أى يغلب
 ولا يُغلب .

المعنى الجملى

بعد أن أخبر سبحانه بأنه سينصر رسله — بين سبيل النصر بأنه رزقهم ثبات قلب ليزدادوا يقينا إلى يقينهم ، ثم أخبر بأن من سنه أن يسلط بعض عباده على بعض ، وهو العليم بالمصالح واستعداد النفوس ، وقد وعد المؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار ، وأوعده عباده الكافرين والمنافقين الذين كانوا يترهبون الدوائر بالمؤمنين — بالعذاب الأليم ، وغضب عليهم وطردهم من رحمة .

روى أحمد عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم « لِيَعْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » مرجعه من الحديدية ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « لقد أنزلت على آية أحب إلى مما على وجه الأرض » ثم قرأها عليهم ، فقالوا هنيئا مريئا يا رسول الله ، لقد بين لك ماذا يفعل بك ، فإذا يفعل بنا ؟ فنزلت عليه « لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ — حتى بلغ — فَوْزًا عَظِيمًا » وأخرجه الشيخان من رواية قتادة .

الإيضاح

(هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم) أى هو الذى أنزل فى قلوب المؤمنين طمأنينة وثبات أقدام عند اللقاء ومقاتلة الأعداء (وهو المسمى فى العصر الحديث الروح المعنوية فى الجيوش) ليزدادوا يقينا فى دينهم إلى يقينهم برسوخ عقيدتهم واطمئنان نفوسهم بعد أن دهمهم من الحوادث ما من شأنه أن يزعج ذوى الأحلام ، ويزلزل العقائد بصد الكفار لهم عن المسجد الحرام ورجوعهم دون بلوغ مقصدهم ، ولكن لم يرجع أحد منهم عن الإيمان بعد أن هاج الناس وزلزلوا زلزالا شديدا حتى إن عمر بن الخطاب لم يكن راضيا عن هذا الصلح

وقال: ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ وكان للصديق من القدم الثابتة ورسوخ الإيمان ما دل على أنه لا يجارى ولا يبارى.

(ولله جنود السموات والأرض) فهو الذى يدبر أمر العالم ويسلط بعض جنده على بعض فيجعل جماعة، يجاهدون لإعلاء كلمة الحق، ويجعل آخرين يقاتلون في سبيل الشيطان، ولو شاء لأرسل عليهم جندا من السماء فأباد خضراءهم، لكنه سبحانه شرع الجهاد والقتال لما فى ذلك من مصلحة هو عليم بها وحكمة قد تغيب عنا، وهذا ما عناه بقوله: (وكان الله عليهما حكيمًا) فهو لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض

(ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وليكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزا عظيما) أى وإما دبر ذلك ليعرف المؤمنون نعمة الله ويشكروها فيدخلوا الجنة ما كثين فيها أبدا، وليكفر عنهم سيئات أعمالهم بالحسنات التى يعملونها، شكراً لربهم على ما أنعم به عليهم، وكان ذلك ظفراً لهم بما كانوا يرجون ويسعون له، ونجاة مما كانوا يحذرونه من العذاب الأليم، وهذا ينتهى ما يرون من منفعة مجلوبة، ومضرة مدفوعة.

(ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء) أى وليعذب هؤلاء فى الدنيا بإيصال الهمم والغم إليهم بسبب علو كلمة المسلمين، وبما يشاهدونه من ظهور الإسلام وفهر المخالفين، وبتسليط النبى صلى الله عليه وسلم عليهم قتلاً وأسراً واسترقاقاً، وفى الآخرة بعذاب جهنم.

وهم قد كانوا يظنون أن النبى صلى الله عليه وسلم سيُعذب، وأن كلمة الكفر ستعلو كلمة الإسلام، ومما ظنوه ما حكاها الله بقوله: «بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا»

وإنا قدم المنافقين على المشركين، لأنهم كانوا أشد ضرراً على المؤمنين من الكفار الجاهرين، لأن المؤمن كان يتوقى الجاهر ويخالط المنافق لظنه إيمانه،

وكان يفشى سره إليه ، وفي هذا دلالة على أنهم أشد منهم عذاباً وأحق منهم بما أوعدهم الله به .

والخلاصة — إن الفريقين ظنوا أن الله لا ينصر رسوله ولا المؤمنين على الكافرين . وقد دعا سبحانه عليهم بأن ينزل بهم ما كانوا يظنونونه بالمؤمنين من الدوائر وأحداث الزمان فقال :

(عليهم دائرة السوء) أى عليهم تدور الدوائر ، وسيحقيق بهم ما كانوا يترقبونه بالمؤمنين من قتل وسبى وأسر لا يتخطاهم .

ثم بين ما يستحقونه من الغضب واللعنة فقال :

(وغضب الله عليهم وانهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً) أى ونالهم غضب من الله وأبعدهم فأقصاهم من رحمته ، وأعد لهم جهنم يصلونها يوم القيامة ، وساءت منزلاً يصير إليه هؤلاء المنافقون والمنافقات والمشركون والمشركات .

(ولله جنود السموات والأرض) من الملائكة والإنس والجن والصيحة والرجفة والحجارة والزلازل والخسف والفرق ونحو ذلك — أنصاراً على أعدائه إن أمرهم بإهلاكهم وأهلكوهم وسارعوا مطيعين لذلك .

وفائدة إعادة هذه الجملة — بيان أن الله جنوداً للرحمة وجنوداً للعذاب ، فذكرهم أولاً بيانا لإتزانهم للرحمة ، وأنهم يدخلون الجنة مكرمين معظمين ، وذكرهم ثانياً بيانا لإتزان العذاب على الكافرين في نار جهنم كما قال : « عَلَيْنَا مَلَائِكَةٌ غِلَظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ » .

روى أنه لما جرى صلح الحديبية قال ابن أبي : أئظن محمد أنه إذا صالح أهل مكة أو فتحها لا يبق له عدو ، فأين فارس والروم — فبين سبحانه أن جنود السموات والأرض أكثر من فارس والروم .

(وكان الله عزيزاً حكيمًا) أى وكان الله غالباً فلا يرد بأسه ، حكيمًا فيما
دبره خلقه .

خلاصة ماسلف

إنه قد ترتب على هذا الفتح أمور أربعة للنبي صلى الله عليه وسلم :

- (١) مغفرة الذنوب .
- (٢) اجتماع الملك والنبوة .
- (٣) الهداية إلى الصراط المستقيم .
- (٤) العزة والمنعة .

وهكذا فاز المؤمنون بأمر أربعة :

- (١) الطمأنينة والوقار .
- (٢) ازدياد الإيمان .
- (٣) دخول الجنات .
- (٤) تكفير السيئات .

وجازى الكفار بأمر أربعة :

- (١) العذاب .
- (٢) الغضب .
- (٣) اللعنة .
- (٤) دخول جهنم .

إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَيُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٩) إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ
إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ، يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ، فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى
نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمَسِيئَتِهِ أَجْرًا عَظِيمًا (١٠)

شرح المفردات

شاهداً: أى على أمتك لقوله تعالى: « وَيَكُونُ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ »
 ومبشراً: أى بالثواب على الطاعة ، ونذيراً: أى بالمذاب على المعصية ، وتعزروه:
 أى تنصروه ، وتوقروه: أى تعظموه ، بكرة: أى أول النهار ، وأصيلاً: أى آخر
 النهار، والمراد جميع النهار، إذ من سنن العرب أن يذكروا طرفى الشيء ويريدوا
 جميعه؛ كما يقال شرقاً وغرباً لجميع الدنيا، يبايعونك: أى يوم الحديبية إذ بايعوه على
 الموت فى نصرته والذب عنه كما روى عن سلمة بن الأكوع وغيره، أو على ألا يفروا
 من قريش كما روى عن ابن عمر وجابر، إنما يبايعون الله، لأن المقصود من بيعة
 الرسول وطاعته طاعة الله وامتنال أوامره، يد الله فوق أيديهم: أى نصرته إياهم أعلى
 وأقوى من نصرتهم إياه: كما يقال اليد لفلان: أى الغلبة والنصرة له، نكث: أى
 نقض، يقال أوفى بالعهد ووفى به: إذا أتمه، وقرأ الجمهور (عليه) بكسر الهاء،
 وضمها حفص لأنها هاء هو وهى مضمومة فاستصحب ذلك كما فى له وضمه به .

المعنى الجملى

بعد أن أتم الكلام على مالكل من النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين من
 الثمرات التى ترتبت على عمله — أعقبه بما يعمها معا، فذكر أنه أرسل رسوله شاهداً
 على أمته، ومبشراً لها بالثواب، ومنذراً إياها بالعقاب، ثم أبان أن فائدة هذا
 الإرسال هو الإيمان بالله وتعظيمه وتسبيحه غدوة وعشيا ونصرة دينه، ثم ذكر بيعة
 الحديبية (قرية صغيرة على أقل من مرحلة من مكة، سميت باسم بئر هناك) وأن
 الذين بايعوا هذه البيعة إنما بايعوا الله ونصروا دينه، وأن من نقض منهم العهد فوبال
 ذلك عائد إليه ولا يضرن إلا نفسه، ومن أوفى بهذا العهد فسينال الأجر العظيم،
 والثواب الجزيل .

بيعة الرضوان — بيعة الشجرة

سبب هذه البيعة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا خراش بن أمية الخزاعي حين نزل الحديدية ، فبعثه إلى قريش بمكة ليبلغ أشرافهم عنه ماجاء له ، فمقروا جمل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأرادوا قتله ، فمنعه الأحابيش (واحدم أحبوش ، وهو الفوج من قبائل شتى) نخلوا سبيله حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضى الله عنه ليعتبه ، فقال إني أخافهم على نفسى لما أعرف من عداوتى إليهم وما بمكة عدوى (قبيلته بنو عدى) ولكنى أدلك على رجل هو أعز بها منى وأحب إليهم — عثمان بن عفان ، فبعثه إلى أبى سفيان وأشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمة ، فلقبه أبان بن سعيد بن العاص حين دخل مكة فجعله فى جواره حتى فرغ من رسالته لعظماء قريش ، ثم احتبسوه عندهم ، فشاع بين المسلمين أن عثمان قد قتل ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا نبرح حتى تناجز القوم ، ودعا الناس إلى البيعة فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، وبايعه القوم على ألا يفتروا أبدا إلا جد بن قيس الأنصارى ، فأرعب ذلك المشركين وأرسلوا داعين إلى المودعة والصلح ، وكان قد أتى رسول الله أن الذى يلقه من أمر عثمان كذب ، فتم الصلح وشئ بعضهم إلى بعض على أن يحج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العام القابل ويدخل مكة .

روى البخارى من حديث قتادة قلت لسعيد بن المسيب : كم كان الذين شهدوا بيعة الرضوان ؟ قال خمس عشرة مائة ، والمشهور الذى رواه غير واحد أنهم كانوا أربع عشرة مائة .

الإيضاح

(إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً) أى إنا أرسلناك أيها الرسول شاهداً على أمتك بما أجابوك فيما دعوتهم إليه مما أرسلتك به إليهم ، مبشراً لهم بالجنة إن أجابوك إلى مادعوتهم إليه من الدين القيم ، ونذيراً لهم عذاب الله إن تولوا وأعرضوا عما جئتهم به من عنده ، فأمنوا بالله ورسوله وانصروا دينه وعظموه وسبحوه في العدو والعشي .

(إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله) أصل البيعة العقد الذي يعقده الإنسان على نفسه من بذل الطاعة للإمام والوفاء بالعهد الذي التزمه له ، والمراد بها هنا بيعة الرضوان بالحديبية ، وقد بايعه جماعة من الصحابة على ألا يفروا ، منهم مفضل بن يسار ، أى إن الذين يبايعونك بالحديبية من أصحابك على ألا يفروا عند لقاء العدو ، ولا يولوهم الأذبار ، إنما يبايعون الله ببيعتهم إياك ، وقد ضمن لهم الجنة بوفائهم له بذلك .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(بئذ الله فوق أيديهم) أى نعمة الله عليهم بالهداية فوق ما صنعوا من البيعة كما قال تعالى : « يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قَلَّ لَأْتَمَنَّوْا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمُ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ » .

(فمن نكث فإنما ينكث على نفسه) أى فمن نقض العهد الذي عقده مع النبي صلى الله عليه وسلم فإن ضرر ذلك راجع إليه ولا يضرن إلا نفسه .

(ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيماً) أى ومن وفى بعهد البيعة فله الأجر والثواب في الآخرة ، وسيدخله جنات يجد فيها ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَّابْنَا أَمْوَالَنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ
لَنَا ، يَقُولُونَ بِالسَّتِّهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ
شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا ، بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
خَبِيرًا (١١) بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ
أَبَدًا وَزَيْنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ ، وَظَنَنْتُمْ ظَنًّا سَوْءًا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا (١٢)
وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَعِيرًا (١٣) وَاللَّهُ
مُتْلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللَّهُ
غَفُورًا رَحِيمًا (١٤) .

شرح المفردات

المخلفون : واحد مخلف ، وهو المتروك في المكان خاف الخارجين منه ، يقولون
بأسنتهم ما ليس في قلوبهم : أي إن كلامهم من طرف اللسان غير مطابق لما في القلب
فهو كذب صراح ، والملك : إمساك بقوة وضبط ؛ تقول ملكت الشيء إذا دخلت تحت
ضبطك دخولا تاما ، ومنه لأملك رأس بعيري : إذا لم تستطع إمساكه إمساكا تاما ،
والمراد بالضرر : ما يضر من هلاك الأهل والمال وضياعهما ، وبالنفع : ما ينفع من حفظ
المال والأهل ، ينقلب : أي يرجع ، إلى أهليهم : أي عشائرم وذوي قربانهم ، بوراً :
أي هالكين لفساد عقائدكم وسوء نياتكم ، سعيراً : أي ناراً مسعورة موقدة ملتهمية .

المعنى الجملي

بعد أن ذكر سبحانه حال المنافقين فيما سلف وبين أن الله غضب عليهم ولعنهم
وأعد لهم عذاب السعير - أردف ذلك بذكر قبائل من العرب جهينة ومزينة

وغفار وأشجع والدَّيْلُ وأسلم — تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما استنفرهم عام الحديبية حين أراد السير إلى مكة معتمرا ، وساق معه الهدى ليُعلم أنه لا يريد حربا ، واعتلوا بأن أموالهم وأهليهم قد شغلتهم، لكنهم في حقيقة أمرهم كانوا ضفاف الإيمان حائقين من مقاتلة قريش وثقيف وكنانة والقبائل المجاورة لمكة وهم الأحابيش ، وقالوا : كيف نذهب إلى قوم قد غزوه في عُقر داره بالمدينة وقتلوا أصحابه فنقاتلهم ؟ وقالوا : لن يرجع محمد ولا أصحابه من هذا السفر ، فضحهم الله في هذه الآية وأخبر بأنه أعدَّ لهؤلاء وأمثلهم نارا موقدة تطلُّع على الأفئدة ، وأعدَّ للمؤمنين جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا ، وهو ذو مغفرة لمن أفلح من ذنبه ، وأناب إلى ربه .

الإيضاح

(سيقول لك الخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا) أى أيها الرسول سيقول لك الذين تخلفوا عن صحبتك والخروج معك في سفرك حين سرت إلى مكة معتمراً زائراً بيت الله الحرام وعاقبتهم على التخلف : شغلنا عن الخروج معك معالجة أموالنا وإصلاح معاشنا وأهلونا ، إذ لم يكن لنا من يقوم بتدبير شئونهم وقضاء حاجهم ، فاطلب لنا المغفرة من ربك ، إذ لم يكن تخلفنا عن عصيانك ، ولا مخالفة لأمرك .

فرد الله عليهم وكذبهم بقوله :

(يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم) أى لأنهم لم يكونوا صادقين في اعتذارهم بأن الامتناع كان لهذا السبب ، لأنهم إنما تخلفوا اعتقادا منهم أن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين يغلبون بدليل قوله بعد : « بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا » .

ثم أمر رسوله أن يرد عليهم حين اعتذروا بتلك الأباطيل فقال :
 (قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً ؟) أى قل لهم :
 إنكم بعبادكم هذا تحترسون من الضر وتتركون أمر الله ورسوله وتقعدون طلباً
 للسلامة ، ولكن لو أراد الله بكم ضراً لا ينفعكم قعودكم شيئاً ، أو أراد بكم نفعاً
 فلا راد له ، إذ من ذا الذى يمنع من قضاءه ؟

وهذا ردّ عليهم حين ظنوا أن التخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفع
 عنهم الضر ويحلب لهم النفع .
 ثم أبان لهم أنه عليهم بجميع نواياهم وأن ما أظروه من العذر هو غير ما أبطنوه
 من الشك والنفاق فقال :

(بل كان الله بما تعملون خبيراً) فيعلم أن تخلفكم لم يكن لما أظهرتم من العاذر ،
 بل كان شكاً ونفاقاً كما فصل ذلك بقوله :

(بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزيّن ذلك
 في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً) أى إن تخلفكم لم يكن لما أبديتم من
 الأسباب ، بل إنكم اعتقدتم أن الرسول والمؤمنين سيقتلون وتستأصل شأفتهم
 فلا يرجعون إلى أهلهم أبداً ، وزيّن لكم الشيطان ذلك الظن حتى قعدتم عن صحبته
 وظننتم أن الله لن ينصر محمداً وصحبه المؤمنين على أعدائهم ، بل سيقتلون ،
 وبلغ الأمر بكم أن قاتم : إن محمداً وأصحابه أكلة رأس (قديلو العدد) فأين يذهبون ؟
 وقد صرتم بما قاتم قوماً هلكي لاتصلحون لشيء من الخير ، مستوحشين سخط الله
 وشديد عقابه .

ثم أخبر سبحانه عما أعدّه للكافرين به فقال :

(ومن لم يؤمن بالله ورسوله فإننا أعتدنا للكافرين سعيراً) أى ومن لم يصدق
 بما أخبر الله به ويقرّ بصدق ما جاء به رسوله من الحق من عنده ، فإننا أعتدنا له
 سعيراً من النار تستعر عليه في جهنم إذا ورد لها يوم القيامة لسكفه بره .

ثم بين قدرته على ذلك وأنه يفعل ما يشاء لا راد لحكمه ، ولا معقب لقضائه فقال :

(والله ملك السموات والأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) أى والله السلطان والتصرف فى السموات والأرض ، فلا يقدر أحد أن يدفعه عما أراد بكم من تعذيب على نفاقكم إن أصررتم عليه ، أو منعه من العفو عنكم إن أنتم تبتتم من نفاقكم وكفركم .

وهذا حسم لأطاعهم فى استغفاره صلى الله عليه وسلم لهم وهم على هذه الحال . ثم أطمعهم فى مغفرته وعفوه إن تابوا وأنابوا إليه فقال :

(وكان الله غفورا رحيما) أى وكان الله كثير المغفرة والرحمة ، يختص من يشاء بمغفرته ورحمته دون من عدام من الكافرين فهم بمعزل عن ذلك .

وفى الآية حث لهؤلاء المتخلفين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم على التوبة والمراجعة إلى أمر الله فى طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم وطلب المبادرة بها ، فإن الله يغفر للتائبين ويرحمهم إذا أنابوا إليه ، وأخلصوا العمل له .

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَائِمٍ لِنَأْخُذُهَا ذُرُوعًا
تَتَّبِعِكُمْ ، يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا ، كَذَلِكَ
قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ نَحْمَسُدُوكُمْ ، بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ
إِلَّا قَلِيلًا (١٥)

شرح المفردات

المراد بالمغائم : مغام خبير ، فإنه عليه الصلاة والسلام رجع من الحديبية فى ذى الحجة من سنة خمس وأقام بالمدينة بقيتها وأوائل الحرم ، ثم غزا خيبر بمن شهد الحديبية

فتفتحها وغنم أموالا كثيرة خصهم بها والمراد بتبديل كلام الله الشركة في المغنم دون أن ينصروا دين الله ويعلموا كلمته ، يفقهون : أى يفهمون والمراد بالفهم القليل فهمهم لأموال الدنيا دون أمور الدين .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه اعتذارهم عن التخلف فيما سلف بأنه إنما كان لمعالجة معاشهم وصلاح أموالهم ، وما كان له من سبب آخر يقعدهم عن نصرته — أعقب ذلك بما يكذبهم في هذه المذرة ، فإنهم قد طلبوا السير مع النبي صلى الله عليه وسلم في وقعة خيبر لما يتوقعونه من مغنم يأخذونها ، ولو كانت التلة السالفة حقا ما طلبوا السير معه بحال .

ثم أخبر بأن الله سبحانه رفض طلبهم الذهاب مع رسول الله إلى خيبر ، فقالوا إن ذلك حسد من المؤمنين لهم أن ينالوا شيئا من الغنيمة ، فرد الله عليهم ما قالوا ، وأبان أنهم قوم ماديون لا يسمعون إلا للدنيا ، ولا يفهمون ما يعلى شأن الدين ويرفع قدره .

الإيضاح

(سيقول الخلفون إذا انطلقتم إلى مغنم لتأخذوها ذرونا تتبعكم) أى سيقول لك الذين تخلفوا عنك في عمرة الحديبية واعتلوا بشغلهم بأموالهم وأهلبيهم : دعونا تتبعكم ونسر معكم إلى غزو خيبر ، حين توقعوا ما سيكون فيها من مغنم . وفي هذا وعد للمبايعين الموافقين بالغنيمة ، وللمتخلفين المخالفين بالحرمان .

(يريدون أن يبذلوا كلام الله) فإنه تعالى وعد أهل الحديبية بمغنم خيبر وخدمهم لا يشاركم فيها غيرهم من الأعراب ، فقد جاء في صحيح الأخبار « إن الله وعد

أهل الحديبية أن يعرضهم من مغنم مكة مغنم خير إذا قفلوا موادعين لا يصيبون شيئاً .

ثم أمر رسوله أن يقول لهم إقناطاً وتيئيساً من الذهاب معه إلى خير .

(قل لن تتبعونا) أى لا تأذن لهم فى الخروج معك معاقبة لهم من جنس ذنبهم فإن امتناعهم عن الخروج إلى الحديبية ما حصل إلا لأنهم كانوا يتوقعون المغنم وهو جلاء العدو ومصاولته ، ولا يتوقعون المغنم ، فلما انعكست الآية فى خير طلبوا ذلك فعاقبهم الله بطردهم من المغنم .

ثم أكد هذا المنع بقوله :

(كذلك قال الله من قبل) أى هكذا قال الله لنا من قبل مرجعنا من الحديبية إليكم : إن غنيمة خير لمن شهد الحديبية معنا ، ولستم ممن شهداها ، فليس لكم أن تتبعونا لأن غنيمتها لغيركم .

ثم أخبر بأنهم سيردون عليك مقالك السابق «كذلكم قال الله من قبل» فقال : (فسيقولون بل تحسدونا) أى إن الله ما قال ذلك من قبل ، بل أتم تحسدونا أن نصيب معكم مغنياً ، ومن ثم منعتونا .

فرد عليهم اتهام رسوله وصحبه بالحسد فقال :

(بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً) أى ما الأمر كما يقول هؤلاء المنافقون من الأعراب : من أنكم تمنعونهم عن اتباعكم حسداً منكم لهم على أن يصيبوا معكم من العدو مغنياً ، بل إنما كان لأنهم لا يفقهون من أمر الدين إلا قليلاً ، ولو فقهوا ما قالوا ذلك لرسوله وللمؤمنين ، بعد أن أخبرهم بأن الله منعمهم غنائم خير .

وفى هذا إشارة إلى أن ردهم حكم الله ، وإثبات الحسد لرسوله والمؤمنين —

ناشئ من الجهل وقلة التدبر .

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدُّعُونَ إِلَى قَوْمِ أُولَىٰ بِأَسِيٍّ شَدِيدِ
 تُقَاتِلُوهُمْ أَوْ يُسَلِّمُونَ، فَإِنْ طُغِيَوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا، وَإِنْ تَوَلَّوْا
 كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٦) لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى
 حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ
 عَذَابًا أَلِيمًا (١٧)

شرح المفردات

قال الزهري ومقاتل وجماعة: المراد بالقوم أولى البأس الشديد بنو حنيفة أصحاب
 مسيئة الكذاب، وقال قتادة: هم هوازن وعضقان، وقال ابن عباس ومجاهد: هم أهل
 فارس، وقال الحسن: هم فارس والروم، قال ابن جرير: إنه لم يبق دليل من نقل
 ولا من عقل على تعيين هؤلاء القوم، فلندع الأمر على إجماله دون حاجة إلى التعمين،
 والبأس: النجدة وشدة المراس في القتال، والخرج: الإثم والذنب.

المعنى الجملى

بعد أن رفض سبحانه إشراك المتخلفين في قتال خير عقاباً لهم على تقاعدهم
 عن نصرته الله ورسوله في الحديبية — أردف ذلك ببيان أن باب القتال لا يزال
 مفتوحاً أمامكم، فإن شئتم أن تبرهنوا على مالكم من بلاء في ميدان القتال فاستعدوا
 فستندبون إلى مواجهة قوم أولى بأس ونجدة، فإما أن يسلموا وإما أن تبارزوهم حتى
 تبيدوا خضراءهم، ولا تبقوا منهم دياراً ولا نافع نار، فإن أجبت داعى الله أنا بكم على
 ما فعلتم جزيل الأجر، وإن نكصتم على أعقابكم كما فعلتم من قبل فستجزون

العذاب الأليم ، ثم ذكر الأعذار المبيحة للتخلف عن الجهاد ، ومنها ما هو لازم كالعمى والعرج ، ومنها ما هو عارض يظراً ويزول كالمرض ، ثم أعقب ذلك بالترغيب فى الجهاد والوعيد بالعذاب الأليم من مذلة فى الدنيا ، ونار موقدة فى الآخرة لمن نكل عنه وأقبل على الدنيا ، وترك ما يقربّه من ربه .

الإيضاح

(قال للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) أى قل لهؤلاء المخلفين الذين تقدم ذكرهم — إنكم ستندبون إلى قتال قوم من أولى البأس والنجدة ، فعليكم أن تخيروهم بين أمرين : إما السيف ، وإما الإسلام . وهذا حكم عام فى مشركى العرب والمتردين يجب اتباعه .

ثم وعدمه إذا أجابوا بقوله :

(فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا) أى فإن تستجيبوا وتنفروا للجهاد وتؤدوا ما طلب منكم أداؤه — يؤتكم ربكم الأجر الحسن والثواب الجزيل ، فقتلوا المغنم فى الدنيا ، وتدخلوا الجنة فى الآخرة .

كما أوعد من نكص على عقبيه بقوله :

(وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما) أى وإن تعصوا ربكم فتدبروا عن طاعته ، وتخالقوا أمره فتركوا قتال أولى النجدة والبأس إذا دعيتهم إلى قتالهم ، كما عصيتهم فى أمره إياكم بالسير مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مكة يعذبكم العذاب الأليم بالمذلة فى الدنيا والنار فى الآخرة .

ثم ذكر الأعذار المبيحة للتخلف عن القتال فقال :

(ليس على الأعمى حرج ، ولا على الأعرج حرج ، ولا على المريض حرج) أى لا إثم على ذوى الأعذار إذا تخلفوا عن الجهاد وشهود الحرب مع المؤمنين إذا هم لقوا عدوهم للعلل التى بهم ، والأسباب التى تمنعهم من شهودها كالعمى والعرج والمريض .

روى أنه لما نزل قوله « وَإِنْ تَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ » الآية . قال أهل الزمانة : كيف بنا يا رسول الله ؟ فأنزل الله : « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ » الآية .
وقال مقاتل : عذر الله أهل الزمانة الذين تخلفوا عن المسير إلى الحديبية بهذه الآية .

ثم رغب سبحانه في الجهاد وطاعة الله ورسوله ، وأوعد على تركه بقوله :
(ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار، ومن يتولّ يعذبه عذاباً أليماً) أى ومن يطع الله ورسوله فيجيب الداعى إلى حرب أعدائه أهل الشرك دفاعاً عن دينه وإعلاء لكلمته — يدخله يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار، ومن يعص الله ورسوله فيتخلف عن القتال إذا دعى إليه — يعذبه عذاباً موجماً في نار جهنم :

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا (١٨) وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا، وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٩)

شرح المفردات

الرضا : ما يقابل السخط ، يقال رضى عنه ورضى به ورضيته ، والمراد بالمؤمنين أهل الحديبية ، ورضاه عنهم لمبايعتهم رسوله صلى الله عليه وسلم ، والشجرة : سمرة (شجرة طلح — وهى المعروفة الآن بالسنت) بايع المؤمنون تحت ظلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ما فى قلوبهم : أى من الصدق والإخلاص فى المبايعه ، والسكينه : الطمأنينه والأمن وسكون النفس ، فتحاً قريباً : هو فتح خيبر عقب انصرافهم من

الحديبية كما علمت ، مغانم كثيرة : هى مغانم خيبر وكانت خيبر أرضا ذات عقار وأموال قسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم بين المقاتلة فأعطى الفارس سهمين والراجل سهما ، عزيزاً : أى غالباً ، حكماً : أى يفعل على مقتضى الحكمة فى تدبير خلقه .

المعنى الجملى

بعد أن بين حال المخلفين فيما سلف — عاد إلى بيان حال المبايعين الذين ذكروهم فيما تقدم بقوله : « إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ » فأبان رضاهم عنه لأجل تلك البيعة ، لما علم من صدق إيمانهم ، وإخلاصهم فى بيعتهم ، وأنزل عليهم طمأنينة ورباطة جأش وجازاهم بمغانم كثيرة أخذوها من خيبر بعد عودتهم من الحديبية ، وكان الله عزيزاً : أى غالباً على أمره ، موجداً أفعاله وأقواله على مقتضى الحكمة .

عن سلمة بن الأكوع قال : « بينما نحن قائلون ، إذ نادى منادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أيها الناس : البيعة البيعة ، نزل روح القدس ، فقرأنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو تحت شجرة سمرة فبايعناه ، فذلك قوله تعالى : « لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ » الآية . فبايع لعثمان بإحدى يديه على الأخرى ، فقال الناس : هنيئاً لأبن عفان ، يطوف بالبيت ونحن هنا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو مكث كذا وكذا سنة ما طاف حتى أطوف » أخرجه ابن جرير وابن أبى حاتم وابن مردويه .

وأخرج البخارى عن سلمة أيضاً قال : « بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، قيل على أى شىء كنتم تباعون يومئذ ؟ قال : على الموت » . وعن جابر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة » . أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود والترمذى .

الإيضاح

(لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة) أخبر سبحانه عن رضاه عن المؤمنين الذين بايعوا تحت الشجرة ببيعة الرضوان ، وقد عرفت أنهم كانوا أربع عشرة مائة ، كما عرفت أسباب هذه البيعة .

ولما أراد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلموا هذه الشجرة بعد ذلك كثر اختلافهم فيها ، فلما اشتبهت عليهم وصار كل واحد يشير إلى شجرة غير التي يشير إليها الآخر، قال عمر: سيروا ذهبتم الشجرة ، وقال ابن عمر: ما اجتمع منا اثنان على الشجرة التي بايعنا تحتها ، وكانت رحمة من الله .

وعن نافع قال: بلغ عمر أن ناسا يأتون الشجرة التي بويح تحتها فأمر بها فقطعت وأخرجه ابن أبي شيبه في المصنّف .

(فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا) أى فعلم ما فى قلوبهم من الصدق والسمع والطاعة ، فأنزل عليهم الطمأنينة وسكون النفس ورباطة الجأش وأعطاهم جزاء ما وهبوه من الطاعة — فتح خير عقب انصرافهم من الحديبية كما علمت .

(ومغانم كثيرة يأخذونها) أى وعروضهم فى العاجل مما رجوا الظفر به من غنائم أهل مكة بقتالهم — فتح خير فأخذوا أموال يهودها وعقارهم وكان كثيرا ، وخصهم بأهل بيعة الرضوان لا يشركهم فيه سواهم .

(وكان الله عزيزا حكيما) وكان الله ذا عزة فى انتقامه ممن انتقم من أعدائه ، حكيما فى تدبير أمور خلقه وتصريفه إياهم فيما شاء من قضائه .

وَعَدَكُمْ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ
 أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا
 مُسْتَقِيمًا (٢٠) وَأُخْرَى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى
 كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا (٢١) وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَارَ ثُمَّ
 لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٢٢) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ
 تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا (٢٣) وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ
 عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ
 بَصِيرًا (٢٤)

شرح المفردات

المغانم الكثيرة: ما وعد به المؤمنون إلى يوم القيامة، فمجل لكم هذه: أى مغانم
 خبير، أيدى الناس: أى أيدى اليهود عن المدينة بعد خروج الرسول منها إلى الحديبية،
 آية: أى أمانة المؤمنين يعرفون بها: (١) صدق الرسول صلى الله عليه وسلم.
 (٢) حياطة الله لرسوله وللمؤمنين وحراسته لهم فى مشهدهم ومغيهم. (٣) معرفة
 المؤمنين الذين سيأتون بعد أن كلاءته تعالى ستمهم أيضا ماداموا على الجادة، الصراط
 المستقيم: هو الثقة بفضل الله والتوكل عليه فيما تأتون وما تذرُونَ، وأخرى: أى
 مغانم أخرى هى مغانم فارس والروم، أحاط الله بها: أى أعدها لكم وهى تحت
 قبضته يُظهر عليها من أراد، لولوا الأدبار: أى لانهمزموا، والولى: الحارس الجامى،
 والنصير: المعين والمساعد، سنة الله: أى سنن سبحانه غلبه أنبيائه سنة قديمة فيمن
 مضى من الأمم كما قال: «لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي» أيديهم عنكم: أى أيدى كفار

مكة ، وأيديكم عنهم يبطن مكة ، يعني بالحديبية ، أظفركم عليهم : أى أعلى كلمته وجعلكم ذوى غلبة عليهم ، فإن عكرمة بن أبي جهل خرج فى خصامة إلى الحديبية فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد على جند فهزمهم حتى أدخلهم حيطان مكة ثم عاد .

المعنى الجملى

بعد أن وعدم فيما سلف بمغانم خبير — أردف ذلك بيان أن ما آتاهم من الفتح والمغانم ليس هو الثواب وحده ، بل الجزء أمامهم ، وإنما عجل لهم هذه لتكون علامة على صدق رسوله صلى الله عليه وسلم وحياطته له ، وحراسته للمؤمنين وليثبتكم على الإسلام ، وليزيدكم بصيرة ، وسيؤتيكم مغانم أخرى من فارس والروم وغيرها ما كنتم تقدرون عليها لولا الإسلام ، فقد كانت بلاد العرب شبه مستعمرات لهذه الدول فأقدرهم الله عليها بعز الإسلام .

ثم ذكر أنه لو قاتلكم أهل مكة ولم يصالحوكم لانهمزوا ولم يجدوا ولياً ولا نصيراً يدافع عنهم ، وتلك هى سنة الله من غلبة المؤمنين ، وخذلان الكافرين ، ثم امتن على عباده المؤمنين بأنه كفف أيدي المشركين عنهم ، فلم يصل إليهم منهم سوء ، وكفف أيدي المؤمنين عن المشركين فلم يقاتلهم عند المسجد الحرام ، فصان كلاً من الفريقين عن الآخر ، وأوجد صلحاً فيه خيرة للمؤمنين ، وعافية لهم فى الدنيا والآخرة .

الإيضاح

(وعدمكم الله مغانم كثيرة تأخذونها ، فعجل لكم هذه وكفف أيدي الناس عنكم ، ولتكون آية للمؤمنين ، ويهديكم صراطاً مستقيماً) أى وعدمكم الله مغانم كثيرة من غنائم أهل الشرك إلى يوم القيامة ، ولكن عجل لكم مغانم خبير ، وكفف أيدي

اليهود عن المدينة بعد خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية وخير قاله قتادة واختاره ابن جرير الطبري ، لتشكروه ولتكون أمانة للمؤمنين يعلمون بها أن الله حافظهم وناصرهم على أعدائهم على قلة عدوهم ، وليهديكم صراطا مستقيما بانقيادكم لأمره ، وموافقكم رسوله صلى الله عليه وسلم ، ويزيدكم يقينا بصلح الحديبية وفتح خيبر .

روى إياس بن سلمة قال : حدثني أبي قال : « خرجنا إلى خيبر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجعل عمى عامرٌ يرتجز بالقوم ثم قال :

تالله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
ونحن عن فضلك ما استغنينا فثبت الأقدام إن لاقينا
وأتران سكينه علينا

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من هذا ؟ قال : أنا عامر ، قال : غفرلك ربك (وما استغفر لأحد إلا استشهد) قال : فنادى عمر بن الخطاب وهو على جمل له ، يا نبي الله لو أمتعتنا بعامر ، فلما قدمنا خيبر خرج قائدهم مرحبٌ يحظر بسيفه ويقول :

قد علمت خيبر أنى مرحبٌ شاكي السلاح بطل مجرب
إذا الحرب أقيمت تلتهب

فبرز له عامر بن عثمان فقال :

قد علمت خيبر أنى عامر شاكي السلاح بطل مغامر

فاختلفا ضربتين ، فوقع سيف مرحب في ثرس عامر ، فرجع سيف عامر على نفسه ، فقطع أكله (الأكل : عرق في اليد) فكانت فيها نفسه ، قال فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أبكي فقلت يا رسول الله بطل عمل عامر ، فقال من قال ذلك ؟ قلت ناس من أصحابك ، قال من قال ذلك ؟ بل له أجره مرتين ، ثم أرسلني إلى

على وهو أرمد وقال لأعطين الراية رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ،
فأتيت علياً فبئت به أقوده وهو أرمد حتى أتيت به رسول الله صلى الله عليه وسلم
فتقل في عينيه فبرئ وأعطاه الراية فخرج مرحب وقال :

أنا الذي سميتى أمى مرحب شاكى السلاح بطل مجرب
فقال على كرم الله وجهه :

أنا الذي سميتى أمى حيدر كليث غابات كره المنظره
أكيلكم بالسيف كيل السندره^(١)

قال : فضرب رأس مرحب فقتله ، ثم كان الفتح على يديه .

(وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها) أى ووعدكم الله فتح بلاد أخرى
لم تقدروا عليها ، قد حفظها لكم حتى تفتحوها ، ومنعها من غيركم حتى تأخذوها
كفارس والروم ، فقد أقدركم عليهم بعز الإسلام وقد كنتم قبل ذلك مستضعفين
أمامهم لاتستطيعون دفعهم عن أنفسكم .

(وكان الله على كل شىء قديراً) أى وكان الله على كل مايشاء من الأشياء
ذا قدرة لايتعذر عليه شىء .

(ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأديار ثم لايجدون ولياً ولا نصيراً) يقول
سبحانه مبشراً عباده المؤمنين بأنه لو تاجزهم المشركون انصرم عليهم ولا نهزم جيش
الكفر فاراً مُدبراً لايجد ولياً يتولى رعايته ويكلؤه ويحرسه ، ولا نصيراً يساعده ،
لأنه محارب لله ورسوله ولحزبه المؤمنين .

(سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً) أى هذه هى سنة
الله فى خلقه ، ماتقابل الكفر والإيمان فى موطن فيصَل إلا نصر الله المؤمنين على

(١) السندره : مكياك واسع ، وكيلهم بها قتلهم قتلا واسعا ذريعا .

الكافرين ، ورفع الحق ووضع الباطل كما نصر يوم بدر أوليائه المؤمنين على قلة عددهم وعددهم ، وكثرة المشركين وكثرة عددهم .

(وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة بعد أن أظفركم عليهم)
 أى إن الله كف أيدي المشركين الذين كانوا خرجوا على عسكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحديبية يلتمسون عزّتهم ليصيبوا منهم ، فبعث رسول الله سرية فأتى بهم أسرى ، ثم خلى سبيلهم ولم يقتلهم منه وفضلا .

روى أحمد وابن أبي شيبة وعبد بن حميد ومسلم وأبو داود والنسائي في آخرين عن أنس قال : « لما كان يوم الحديبية هبط على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ثمانون رجلا من أهل مكة فى السلاح من جبل التنعيم (التنعيم : موضع بين مكة وسرف) فدعا عليهم فأخذوا نفعا عنهم فنزلت هذه الآية : (وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ) » الخ .

وروى أحمد عن عبد الله بن مَعْفَل المزي رضى الله عنهما قال : « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصل الشجرة التى قال الله فى القرآن ، وكان يقع من أغصان تلك الشجرة على ظهر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان على بن أبى طالب وسهيل ابن عمرو بين يديه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلى رضى الله عنه — اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فأخذ سهيل بيده وقال : ما نعرف الرحمن الرحيم ، اكتب فى قضيتنا ما نعرف . قال اكتب باسمك اللهم — وكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله أهل مكة ، فأمسك سهيل بن عمرو بيده وقال : لقد ظلمناك إن كنت رسوله ، اكتب فى قضيتنا ما نعرف ، فقال اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله فبينما نحن كذلك إذ خرج علينا ثلاثون شابا عليهم السلاح فثاروا فى وجوهنا ، فدعا عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخذ الله بأبصارهم فقمنا إليهم فأخذناهم ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : هل جئتم فى عهد أحد ؟ وهل جعل لكم أحد أمانا ؟

فقالوا لا ، نقلَ سبيلهم فأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : (وهو الذى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ) « الآية .

(وكان اللهُ بما تَعْمَلُونَ بَصِيرًا) أى وكان اللهُ بِأَعْمَالِكُمْ وَأَعْمَالِهِمْ بَصِيرًا لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْهَا ، وَهُوَ بِحَاجَاتِكُمْ وَحَاجَاتِهِمْ بِهَا .

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَالْهَدْيِ مَعْكُوفًا
 أَنْ يَبْلُغَ حَجَّهٖ ، وَلَوْلَا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَلِنِسَاءٍ مُؤْمِنَاتٍ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَّوُّوهُمْ فَتَضَيَّبِكُمْ مِنْهُمْ مَعْرَةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ ، لِيُدْخِلَ اللهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (٢٥) إِذْ جَعَلَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ
 عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا
 وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا (٢٦) .

شرح المفردات

الهدى : ما يقدم قربانا لله حين أداء مناسك الحج أو العمرة ، معكُوفًا : أى محبوسًا ؛ يقال عكفت الرجل عن حاجته : إذا حبسته عنها ، محله : أى المكان الذى يسوغ فيه نحره وهو منى ، والوطء : الدوس ، والمراد به الإهلاك ، وفى الحديث « اللهم أشدد وطأتك على مضر » ، والمعرة : المكروه والمشقة ، من عره إذا عراه ودهاه بما يكره والتزيب : التفرق والتميز ، والحميّة : الأنفة ، يقال حميت من كذا حمية إذا أنفت منه وداخلك منه عار ، والمراد بها ثوران القوة الغضبية ، وحمية الجاهلية : حمية فى غير

موضعها لا يؤيدها دليل ولا برهان ، وكلمة التقوى هي : لإله إلا الله ، وأهلها : أى المستأهلين لها .

المعنى الجملى

بعد أن أبان فيما سلف أن الله كف أيدى المؤمنين عن الكافرين ، وكف أيدى الكافرين عن المؤمنين — عيّن هنا مكان الكف وهو البيت الحرام الذى صدوا المؤمنين عنه ومنعوا الهدى معكوفاً أن يبلغ محله ، والسبب الذى لأجله كفهم هو كفرهم بالله ، ثم أخبرهم بأنه لولا أن يقتلوا رجالاً مؤمنين ونساء مؤمنات لاعلم لهم بهم فيلزمهم العار والإثم — لأذن لهم فى دخول مكة ، واقدم كان الكف ومنع التعذيب عن أهل مكة ليُدخل الله فى دين الإسلام من يشاء منهم بعد الصلح وقيل دخولها ، ولينعم الأذى عن المؤمنين منهم ، ولو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً بالقتل والسبي حين جعلوا فى قلوبهم أنفة الجاهلية التى تمنع من الإذعان للحق ، ولكن أنزل الله الثبات والوقار على رسوله وعلى المؤمنين فامتنعوا أن يبطشوا بهم ، وألزمهم الوفاء بالمهد وكانوا أحق بذلك من غيرهم إذ اختارهم الله لدينه وصحبه نبيه .

روى أنه لما تم رسول الله صلى الله عليه وسلم بقتلهم بعثوا سهيل بن عمرو وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص ليسألوه أن يرجع فى عامه على أن تُخلى قرىش مكة من العام القابل ثلاثة أيام فأجابهم وكتبوا بينهم كتاباً ، فقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى الله عنه : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم ، فقالوا : لانعرف هذا : اكتب باسمك الله ، ثم قال عليه السلام : اكتب هذا ماصالح عليه رسول الله أهل مكة ، فقالوا لو كنا نعلم أنك رسول الله ماصددناك عن البيت وما قاتلناك ، اكتب هذا ماصالح عليه محمد بن عبد الله أهل مكة ، فقال صلى الله عليه وسلم اكتب ما يريدون ،

فهم المؤمنون أن يأبوا ذلك وأن يببطشوا بهم ، فأنزل الله السكينة عليهم فتوقروا واحتملوا كل هذا ، وقد تقدم ذلك برواية أخرى .

الإيضاح

(هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله)
 أى هم الذين جحدوا توحيد الله وصدوكم أيها المؤمنون بالله عن دخول المسجد الحرام وصدوا الهدى محبوساً أن يبلغ محل نحره وهو الحزم عنادا منهم وبغيا ، وكان رسول الله ساق معه حين خرج إلى مكة في سفرته تلك سبعين بدنة .

(ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم) أى ونولا هؤلاء الذين يكتمون إيمانهم خيفة على أنفسهم - بين أظهرهم - لسلطانكم عليهم فقتلتموهم وأبذتم خضراءهم ، ولكن بين أفتانهم من المؤمنين والمؤمنات من لا تعرفونهم حين القتل ، ولو قتلتموهم للحقتكم المعرة والمشقة ، بما يلزمكم في قتالهم من كفارة وعيب .

والخلاصة - إنه لولا وجود مؤمنين مختلطين بالمشركين غير متميزين منهم - لوقع ما كان جزاءهم لصدحهم وكفرهم ، ولو حصل ذلك لزمكم العيب ؛ إذ يقول المشركون إن المسلمين قتلوا أهل دينهم .

(ليدخل الله في رحمته من يشاء) أى وقد حال بينكم وبين قتالهم لدخول مكة . إخراج المؤمنين من بين أظهرهم ، وليدخل في دينه من يشاء منهم قبل أن تدخلوها .

عن أبي جمعة جنيد بن سبيع قال : « قاتلت رسول الله صلى الله عليه وسلم أول النهار كافرا وقاتلت معه آخر النهار مسلما ، وفيما نزلت : ولولا رجال الح . وكنا تسعة نفر سبعة رجال وامرأتين » ، وفي رواية ابن أبي حاتم « كنا ثلاثة رجال وأربع نسوة » أخرجه الطبراني وأبو يعلى وابن مردويه .

(لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) أى لو تميز الكفار من المؤمنين الذين بين أظهرهم لسلطنا كم عليهم فقتلتموهم قتلا ذريعا .
ولما بين شرط استحقاقهم للعذاب بين وقته فقال :

(إذ جعل الذين كفروا في قلوبهم الجمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها) أى لعذبناهم حين جعلوا في قلوبهم أنفة الجاهلية ، فامتنع سهيل بن عمرو أن يكتب في كتاب الصلح الذى بين رسول الله والمشركون (بسم الله الرحمن الرحيم) وأن يكتب فيه (محمد رسول الله) وامتنع هو وقومه أن يدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم عامه هذا المسجد الحرام ، فأنزل الله الصبر والطمأنينة على رسوله ففهم عن الله مراده وجرى على ما يرضيه ، وأنزله على المؤمنين فألزمهم أمره وقبلوه ، وحامهم من هزات الشياطين وألزمهم كلمة التوحيد والإخلاص لله فى العمل ، وكانوا أحق بها ، وكانوا أهلها ، إذ هم أهل الخير والصلاح .

(وكان الله بكل شىء عليما) سواء أكان من المؤمنين أم من الكفار فيجازى

كلا بما عمل .

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ
إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ
تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا (٢٧) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ
رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ
شَهِيدًا (٢٨) .

شرح المفردات

الرؤيا : هي رؤيا منام وحُلم ، وصدق الله رسوله الرؤيا : أى صدقه فى رؤياه ولم يكذبه ، محلقين رموسكم ومقصرين : أى يخلق بعضهم ويقصر بعض آخر بإزالة بعض الشعر ، ليظهره على الدين كله : أى ليعليه على سائر الأديان : حقها وباطلها ، وأصل الإظهار : جعل الشيء باديا ظاهرا للرأى ثم شاع استعماله فى الإعلاء .

المعنى الجملى

رأى عليه الصلاة والسلام فى المنام وهو بالمدينة قبل أن يخرج إلى الحديبية أنه يدخل المسجد الحرام هو وأصحابه ، آمنين منهم من يخلق ومنهم من يقصر ، فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا وحسبوا أنهم داخلون مكة عامهم هذا ، فلما انصرفوا ولم يدخلوا شق ذلك عليهم ، وقال المنافقون : أين رؤياه التى رآها ؟ فأنزل الله هذه الآية ودخلوا فى العام المقبل .

ومما روى « أن عمر بن الخطاب قال : أتيت النبى صلى الله عليه وسلم فقلت : ألسنت نبى الله حقا ؟ قال بلى ، قلت فلم تعطى الدنيا فى ديننا إذن ؟ قال إبنى رسول الله ولست أعصيه وهو ناصرى ، قلت : أولست كنت تحدثنا أناسنا فى البيت ونطوف به ؟ قال فأتيت أبا بكر فقلت يا أبا بكر : أليس هذا نبى الله حقا ؟ قال بلى ، قلت ألسنا على الحق ، وعدونا على الباطل ؟ قال بلى . قلت فلم تعطى الدنيا فى ديننا ؟ قال : أيها الرجل إنه رسول الله وليس يعصى ربه وهو ناصره ، فاستمسك بفرزه (سر على نهجه) فوالله إنه لعلى الحق ، قلت : أليس كان يحدثنا أنه سياتى البيت ويطوف به ؟ قال بلى . قال فأخبرك أنه آتية العام ؟ قلت لا ، قال فإنك تأتية وتطوف به . »

الإيضاح

(لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون ، فلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا)
 أى لقد صدق الله رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم رؤياه التى أراها إياه أنه يدخل هو وأصحابه البيت الحرام آمنين لا يخافون أهل الشرك ، محلقاً بعضهم ومقصرًا بعضهم الآخر ، فلم جل ثناؤه مالم تعلموا ، وذلك هو علمه تعالى بما بمكة من الرجال والنساء المؤمنين الذين لم يعلمهم المؤمنون ، ولو دخلوها هذا العام لوطئوهم بالخيل والرجل فأصابتهم منهم معرفة بغير علم ، فردهم الله عن مكة من أجل ذلك ، فجعل من دون دخولهم المسجد فتحا قريبا هو صلح الحديبية وفتح خيبر ، لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر اليوم الموعود .

ثم أكد صدق الرسول فى الرؤيا بقوله :

(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله) أى هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام ، ليبطل به الملل كلها بنسخ سائر الديانات ، وإظهار فساد العقائد الزائفات ، حتى لا يكون دين سواه .

ولما كان هذا وعدا لا بد من تحققه أعقبه بقوله :

(وكفى بالله شهيدا) على أن ما وعده من إظهار دينه على جميع الأديان

كأن لا محالة .

وفى هذا تسلية له عما وقع من سهيل بن عمرو ، إذ لم يرض بكتابة « محمد رسول الله » وقال ما قال .

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ
 رُكُوعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَمْرِ

السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوْقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)

شرح المفردات

أشداء : واحد شديد ، رجاء : واحد رحيم ، فضلا : أى ثوابا ، والسياء والسيما من السومة (بالضم) وهى العلامة كما قال :
غلام رماه الله بالحسن يافعا له سيمياء لانتشق على البصر

مثلهم : أى وصفهم العجيب الجارى مجرى الأمثال فى الغرابة ، والشطء : فروخ الزرع ، وهو ماخرج منه ، وتفرع فى شاطئيه : أى جانبيه وجمعه أشطاء ، وشطأ الزرع وأشطاء : إذا أخرج فراخه ، وهوى الخنطة والشعير والنخل وغيرها ، وآزره : أعانه وقواه وأصله من المؤازرة وهى المعاونة ، واستوى على سوقه : أى استقام على قصبه وأصوله ، والسوق ، واحدها ساق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الإسلام ، ليعلى شأنه على سائر الأديان — أردف هذا ببيان حال الرسول والمرسل إليهم ، فوصفهم بأوصاف كلها مذايح لهم ، وذكرى لمن بعدهم ، وبها سادوا الأمم وامتلكوا الدول وقبضوا على ناصية العالم أجمع ، وهى :

(١) إنهم غلاظ على من خالف دينهم وناوأم العدا ، رجاء فيما بينهم .

(٢) إنهم جعلوا الصلاة والإخلاص لله دينهم فى أكثر أوقاتهم .

(٣) إنهم يرجون بعملهم الثواب من ربهم والزلفى إليه ورضاه عنهم .

(٤) إنهم لهم سيمى يعرفون بها ، فلهم نور فى وجوههم ، وخشوع وخضوع يعرفه أولو الفطن :

(٥) إن الإنجيل ضرب بشأنهم المثل فقال : سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع ، يأمرن بالمعروف وينهون عن المنكر .

ذاك أنهم فى بدء الإسلام كانوا قليلى العدد ثم كثروا واستحكوا وترقى أمرهم يوما فيوما حتى أعجب الناس بهم ، فإن النبى صلى الله عليه وسلم قام وحده ثم قواه الله بمن معه كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها .

الإيضاح

(محمد رسول الله) أى إن محمدا صلى الله عليه وسلم رسول الله بلاشك ولا ريب مها أنكر المنكرون ، وافترى الجاحدون .

(والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم) أى إن صحابته الذين معه غليظة قلوبهم على الكفار ، رقيقة قلوب بعضهم على بعض ، لينة أنفسهم لهم ، هينة عليهم .

ونحو الآية قوله : « فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ، أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ » وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً » وفى الحديث « مثل المؤمنین فى توادهم وتراحهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى سائر الأعضاء بالحلمى والسهر » وقوله صلى الله عليه وسلم « المؤمن المؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، وشبك بين أصابعه » وعلى هذا جاء قوله :

حليم إذا ما الحلم زين أهله على أنه عند العدو مهيب

(تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من ربهم ورضواناً) أى تراهم دائبين على الصلاة مخلصين لله محسبين فيها الأجر وجزيل الثواب عنده طالبين رضاه عنهم « وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » .

(سيام في وجوههم من أثر السجود) أى لهم سميت حسن وخشوع وخضوع يظهر أثره في الوجوه ، ومن ثم قيل : إن للحسنة نوراً في القلب ، وضياء في الوجه وسعة في الرزق ومحبة في قلوب الناس . وقال عثمان بن عفان رضى الله عنه : ما أسرُّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه ، وفتتات لسانه .

والخلاصة — إن كل ما يفعله المرء أو يتصوره يظهر على صفحات الوجه ، فالؤمن إذا كانت سريرته صحيحة مع الله أصلح الله عز وجل ظاهره للناس .

روى عن عمر أنه قال : من أصلح سريرته أصلح الله علاقته ، وعن أبي سعيد رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لو أن أحدكم يعمل في صخرة صماء ليس لها باب ولا كوة لخرج عمله للناس كأننا ما كان » .

ثم أخبر سبحانه أنه نوّه بفضلهم في الكتب المنزلة والأخبار المتداولة فقال : (ذلك مثلهم في التوراة) أى هذه الصفة التي وصفت لكم من صفات أتباع محمد صلى الله عليه وسلم هي صفتهم في التوراة .

(ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع) أى إن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم يكونون قليلين ثم يزدادون ويكثرون ويستغلظون كزرع أخرج فراخه التي تنفرع على جانبيه كما يشاهد في الحنطة والشعير وغيرهما ، فيقوى ويتحول من الدقة إلى الغلظ ، ويستقيم على أصوله ، فيعجب به الزراع لقوته وكثافته وغلظه وحسن منظره .

والخلاصة — إن هذا مثل ضربه الله لبدء الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوى واستحکم وأعجب الناس .

روى أنس بن مالك أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « أرحم أمتي أبو بكر ، وأشدهم في أمر الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأنضامهم علي ، وأقروهم أبي ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأكمل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح » .
ثم بين أنه إنما جعلهم كذلك .

(ليغيظ بهم الكفار) أى إنه تعالى نمام وأكثر عددهم ليغيظ بهم الكفار ، إذ يعتقدون أن الله متم بهم نوره ولو أبى الجاحدون .

[تنبيه] هذه أوصاف الأمة الإسلامية أيام عزها ، فانظر الآن وتأمل في تخاذلها وجهلها حتى أصبحت مثلاً في الخمول والجهل ، وأصبحت زرعاً هشياً تذروه الرياح ، فكيف يجتمع عصفه وتبته ؟

ولعل الله يبدل الحال غير الحال ويخضر الزرع بعد ذبوله ، وتعود الأمة سيرتها الأولى مهيبة مرعية الجانب مخشية القوة .

(وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً) أى وعد سبحانه هؤلاء الذين آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم أن يغفر ذنوبهم ويجزل أجرهم بإدخالهم جنات النعيم ، ووعد الله حق وصدق لا يخلف ولا يبدل .

وكل من اقتنى أثر الصحابة فهو في حكمهم ، ولهم السبق والفضل والكمال الذى لا يلحقهم فيه أحد .

روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا أصحابي ، فوالذى نفسى بيده لو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهباً ما أدرك مدّ أحدكم ولا نصيفه » رضى الله عنهم وأرضاهم .

[خاتمة] هذه السورة آخر القسم الأول من القرآن الكريم وهو المطول ، وسيأتى القسم الثانى ، وهو المفصل .

خلاصة مقاصد هذه السورة

- (١) بشارة النبي صلى الله عليه وسلم بالفتح وإعزاز دين الله .
- (٢) وعد المؤمنين ووعيد الكافرين والمنافقين .
- (٣) ذم المخلفين من عرب أسلم وجهينة ومزينة وغفار .
- (٤) رضوان الله على المؤمنين الذين بايعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الشجرة ، ووعده إياهم بالنصر في الدنيا ، وبالجنة في الآخرة .
- (٥) البشرى بتحقق رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم يدخلون المسجد الحرام آمنين وقد تم لهم ذلك في العام المقبل .
- (٦) وصف النبي صلى الله عليه وسلم والذين آمنوا معه بالرحمة والشفقة .
- (٧) وعد الله للذين آمنوا وعملوا الصالحات بالمغفرة والأجر العظيم .

سورة الحجرات

هي مدنية ، عدة آياتها ثمانى عشرة ، نزلت بعد سورة المجادلة .
ومناسبتها لما قبلها من وجوه :

- (١) ذكر في هذه قتال البغاة ، وفي تلك قتال الكفار .
- (٢) إن السابقة ختمت بالذين آمنوا ، وافتتحت هذه بهم .
- (٣) إن كلا منهما تضمن تشريفا وتكريما للرسول صلى الله عليه وسلم ولا سيما في مطلعيهما .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيْ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ
اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ
النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ
وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ (٢) إِنَّ الَّذِينَ يَعْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ
الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَعْفَرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (٣)

شرح المفردات

لا تقدموا : أى لا تتقدموا ، من قولهم مقدمة الجيش لمن تقدم منهم ، قال
أبو عبيدة : العرب تقول : لا تقدم بين يدي الإمام وبين يدي الأب : أى لا تعجل
بالأمر دونه ، وقيل إن المراد لا تقولوا بخلاف الكتاب والسنة ، ورجح هذا ، لا ترفعوا
أصواتكم فوق صوت النبي : أى إذا كلمتموه ونطق ونطقتم فلا تبلغوا بأصواتكم وراء

الحد الذي يبلغه بصوته ، يعضون أصواتهم : أى يخفضونها ويلينونها ، امتحن الله قلوبهم : أى طهرها ونقاها كما يمتحن الصائغ الذهب بالإذابة والتنقية من كل غش .

المعنى الجملى

ذكرت سورة الفتح بعد سورة القتال لأن الأولى كالمقدمة والثانية كالنتيجة و ذكرت هذه بعد الفتح ، لأن الأمة إذا جاهدت ثم فتح عليها والنبي صلى الله عليه وسلم بينهم ، واستتب الأمر ، وجب أن توضع القواعد التي تكون بين النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وكيف يعاملونه ؟ والآداب التي يجب أن يكونوا عليها ، فهم قد وصفوا في الأمثال المضروبة في التوراة والإنجيل بالتراحم فيما بينهم والركوع والسجود والعظم والقوة — وهنا ذكر كيف يعاملون الرسول صلى الله عليه وسلم وكيف يعامل بعضهم بعضاً ؟ فطلب إليهم ألا يقطعوا أمراً دون أن يحكم الله ورسوله به ، ولا يعرفوا أصواتهم فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم ولا يجهروا له بالقول كما يجهر بعضهم لبعض لما في ذلك من الاستخفاف الذي قد يؤدي إلى الكفر الحبط للأعمال .

الإيضاح

أدب الله المؤمنين إذا قابلوا الرسول بأدبين : أحدهما فعل ، وثانيهما قول ، وأشار إلى أولها بقوله :

(١) (يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم) أى يأيها المؤمنون لا تعجلوا بقضاء أمر قبل أن يقضى الله ورسوله لكم فيه ، إذ ربما تقضون بغير قضائهما ، وراقبوا الله أن تقولوا ما لم يأذن لكم الله ورسوله به ، إن الله سميع لما تقولون ، عليم بما تريدون بقولكم إذا قلتم ، لا يخفى عليه شيء من ضمائر صدوركم .

وينحو هذا أجاز معاذ بن جبل رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بعثه إلى اليمن قال له « بم تحكم ؟ قال بكتاب الله تعالى ، قال صلى الله عليه وسلم فإن لم تجد ، قال بسنة رسوله ، قال صلى الله عليه وسلم فإن لم تجد ، قال أجتهد رأيي ،

فَضْرِبْ فِي صَدْرِهِ وَقَالَ : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَفَّقَ رَسُولَ رَسُولِهِ لِمَا يَرْضَى مِنْ رَسُولِهِ .
رواه أحمد وأبو داود والترمذى . صحيفته بجميع طرقة : انظر المسند كصنيفه لله بن ج .
فتراه قد أخرج رأيه واجتهاده إلى ما بعد الكتاب والسنة ، ولو قدمه لكان من المتقدمين بين يدي الله ورسوله .

والخلاصة — إنه طلب إليهم أن ينقادوا لأوامر الله ونواهيه ، ولا يعجلوا بقول أو فعل قبل أن يقول الرسول أو أن يفعل ، فلا يذبحوا يوم عيد الأنحى قبل أن يذبح ، ولا يصوم أحد يوم الشك وقد نهى عنه .
وأشار إلى ثانيهما بقوله :

(٢) (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) أى إذا نطق ونطقتم فلا ترفعوا أصواتكم فوق صوته ، ولا تبلغوا بها وراء الحد الذى يبلغه ، لأن ذلك يدل على قلة الاحشام ، وترك الاحترام .

روى البخارى بسنده عن ابن أبى مليكة « أن عبد الله بن الزبير رضى الله عنه أخبره أنه قدم ركب من تميم على النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : أمر القعقاع بن معبد ، وقال عمر : بل أمر الأقرع بن حابس ، فقال أبو بكر رضى الله عنه : ما أردت إلا خلافى ، فقال عمر رضى الله عنه : ما أردت خلافتك ، فماريا حتى ارتفعت أصواتهما فنزلت : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ) الآية . فكان أبو بكر بعدها لا يكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا كأخى السرار ، وما حدث عمر النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك فسمع كلامه حتى يستغفمه مما يخفض صوته .»

(ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون)
أى وإذا كلمتموه وهو صامت فإياكم أن تبلغوا به الجهر الذى يدور بينكم ، أو أن تقولوا يا محمد ، يا أحمد ، بل خاطبوه بالنبوة مع الإجلال والتعظيم ، خشية أن يؤدي ذلك إلى الاستخفاف بالمخاطب فتكفروا من حيث لا تشعرون .

ولما نزلت هذه الآية تخلف ثابت بن قيس عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعاه إليه صلى الله عليه وسلم ، فقال يا رسول الله : لقد أنزلت هذه الآية وإني رجل جهير الصوت ، فأخاف أن يكون علي قد حبط ، فقال عليه الصلاة والسلام : لست هناك ، إنك تعيش بخير وتموت بخير ، وإنك في أهل الجنة ، فقال : رضيت ببشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا أرفع صوتي على رسول الله صلى الله عليه وسلم أبدا ، فأنزل الله :

(إن الذين يعضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) أى إن الذين ضرب الله قلوبهم بأنواع الخن والتكاليف الشاقة حتى طهرت وصفت بما كابدت من الصبر على المشاق ، لهم مغفرة لذنوبهم ، وأجر عظيم لغضهم أصواتهم ولسائر طاعاتهم .

روى أحمد فى الزهد عن مجاهد قال : كتبت إلى عمر ، يا أمير المؤمنين رجل لا يشتهى المعصية ولا يعمل بها أفضل ، أم رجل يشتهى المعصية ولا يعمل بها ؟ فكتب عمر رضى الله عنه ، إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها (أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم) .

إِنَّ الَّذِينَ ينادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ (٤)
وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ
رَحِيمٌ (٥)

شرح المفردات

من وراء الحجرات : أى من خارجها سواء كان من خلفها أو من قدامها ، إذ أنها من المواراة وهى الاستتار ، فما استتر عنك فهو وراء خلفا كان أو قداما ، فإذا رأيته

لا يكون ورايك . ويرى بعض أهل اللغة أن وراء من الأضداد فتطلق تارة على ما أمامك ، وأخرى على ما خلفك ، والحجرات (بضم الجيم وفتحها وتسكينها) واحداً حجر : وهى القطعة من الأرض المحجورة ؛ أى المنوعة عن الدخول فيها بمحاطة ونحوه ، والمراد بها حجرات نسائه عليه الصلاة والسلام ، وكانت تسعة لكل منهن حجر من جريد النخل على أبوابها المسوح من شعر أسود ، وكانت غير مرتفعة يتناول سقفها باليد ، وقد أدخلت فى عهد الوليد بن عبد الملك بأمره فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فبكى الناس لذلك .

وقال سعيد بن المسيب يومئذ : لوددت أنهم تركوها على حالها لينشأ ناس من أهل المدينة ويقدم القادم من أهل الآفاق فيرى ما اكتفى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته ، فيكون ذلك مما يزهّد الناس فى التفاخر والتكاثر فيها .

المعنى الجملى

ذم الله تبارك وتعالى الذين ينادون رسول الله صلى الله عليه وسلم من وراء الحجرات وهو فى بيوت نسائه كما يفعل أجلاف الأعراب ، ثم أرشدهم إلى مافيه الخير والمصلحة لهم فى دينهم ودنياهم ، وهو أن ينتظروا حتى يخرج إليهم .

زوى ابن جرير بسنده عن زيد بن أرقم رضى الله عنه قال : « اجتمع ناس من العرب فقالوا انطلقوا بنا إلى هذا الرجل ، فإن يك نبيا فنحن أسعد الناس به ، وإن يك ملكا نعش بجناحه ، قال : فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بما قالوا ، فجاءوا إلى حجره النبى صلى الله عليه وسلم فجعلوا ينادونه وهو فى حجرته يا محمد يا محمد ، فأنزّل الله تعالى : (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) قال : فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأذنى فدها وجعل يقول : لقد صدق الله تعالى قولك يا زيد . لقد صدق الله قولك يا زيد . »

وقال قتادة : نزلت في وفد تميم وكانوا سبعين رجلا منهم الزُّبَيْرُ قَانُ بن بدر وعُطَارِدُ بن حاجب وقيس بن عاصم وعمرو بن الأَهمِّ ، جاءوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم للمفاخرة ، فنادوا على الباب : اخرج إلينا يا محمد ، فإن مدحنا لزين ، وإن ذمنا لشين ، فخرج إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : إنما ذلكم الله الذي مدحه زين وذمه شين ، فقالوا : نحن ناس من تميم جئنا بشاعرنا وخطيبنا نشاعرك ونفاخرك ، فقال رسول الله : ما بالشعر بعثت ، ولا بالفاخر أُمِرت ، ولكن هاتوا قمام شاب منهم فذكر فضله وفضل قومه ، فقال صلى الله عليه وسلم للثابت بن قيس ابن شماس وكان خطيب النبي صلى الله عليه وسلم ، قم فأجبه فأجابه ، وقام الزُّبَيْرُ قَانُ ابن بدر فقال :

نحن الكرامُ فلا حتى يعادلنا
منا الملوك وفيما تُنصَبُ البيعُ
إلى أن قال :

فلا ترانا إلى حتى يفاخرهم
فمن يفاخرنا في ذلك نعرفه
ف يرجع القوم والأخبارُ تُسَمِّعُ

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لحسان بن ثابت أجبه فقال :

إن الذوائب من فخر وإخوتهم
قد بينوا سنة للناس تتبعُ
يرضى بها كل من كانت سريره
تقوى الإله وكل الخير يضطبعُ
قومٌ إذا حاربوا ضرّوا عدوهم
أو حاولوا النفع في أشياعهم نفعوا
سجيةٌ تلك منهم غير محدثة
إن الخلائق فاعلم شرّها البِدَعُ

في قصيدة طويلة ، فلما فرغ حسان من قوله ، قال الأقرع بن حابس : وأبي إن هذا الرجل لمؤتني له ، لخطيبه أخطب من خطيبنا ، ولشاعره أشعر من شاعرنا ، ولأصواتهم أعلى من أصواتنا ، ثم دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : أشهد

أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما يضرك ما كان من قبل هذا ، ثم جوزهم رسول الله فأحسن جوائزهم .

الإيضاح

(إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون) أى إن الذين ينادونك من وراء حجرات نساءك أكثرهم جهال بما يجب لك من الإجلال والتعظيم . والمراد بالحجرات موضع خلوته ومقيله مع بعض نساته .

(ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم) أى ولو أن هؤلاء الذين ينادونك من وراء الحجرات صبروا ولم ينادوك حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم عند الله ، لأنه قد أمرهم بتوقيرك وتعظيمك .

(والله غفور رحيم) أى والله ذو عفو عن ناداك من وراء الحجاب إن هو تاب من معصيته بتدائك كذلك ، وراجع أمر الله فى ذلك وفى غيره ، رحيم به أن يعاقبه على ذنبه ذلك من بعد توبته منه .

والخلاصة — إن الله سبحانه يحسن الصياح برسول الله صلى الله عليه وسلم فى حال خلوته من وراء الجدر كما يصاح بأهون الناس قدراً ، لينبهه إلى فظاعة ما جسروا عليه ، لأن من رفع الله قدره عن أن يجهر له بالقول كان صنيع مثل هؤلاء معه من المنكر الذى بلغ من التفاحش مبلغاً لا يقدر قدره .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ (٦) وَاعْلَمُوا أَن فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِئُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِّنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُم

الْإِيمَانَ وَزَيْنَتَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَتْ إِلَيْكُمْ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ
أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (٧) فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٨).

شرح المفردات

الفاسق: هو الخارج عن حدود الدين من قولهم: فسق الرطب إذا خرج من قشره، والتبين: طلب البيان، والنبأ: الخبر، قال الراغب: ولا يقال للخبر نبأ إلا إذا كان ذا فائدة عظيمة به يحصل علم أو غلبة ظن، بجهالة: أي جاهلين حالهم فتصبحوا: أي فتصيروا، نادمين: أي مغتمين غما لازما متمدين أنه لم يقع؛ فإن الندم الغم على وقوع شيء مع تمنى عدم وقوعه، كَعَنْتُمْ: أي لوقعتم في الجهد والهلاك، والكفر: تغطية نعم الله تعالى بالجحود لها، الفسوق: الخروج عن الحد كما علمت، والعصيان: عدم الانقياد، من قولهم: عصت النواة: أي صلبت واشتدت، والرشاد: إصابة الحق واتباع الطريق السوي.

المعنى الجملي

هذا أدب أدب الله به عبادة المؤمنين — أنه إذا جاءهم الفاسق المجاهر بترك شعائر الدين بأيّ خير، لا يصدقونه بأذى ذي بدء حتى يتثبتوا، ويتطلبوا انكشاف الحقيقة ولا يعتمدوا على قوله، فإن من لا يبالي بالفسق لا يبالي بالكذب الذي هو من فضيلته — كراهة أن يُصيَبوا بأذى قوما هم جاهلون حالهم، فتندموا على ما فرط منكم وتمنوا أنه لو لم يكن قد وقع.

روى عن ابن عباس «أن الآية نزلت في الوليد بن عقبة بن أبي معيط، وكان قد بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بني المصطلق ليأخذ الصدقات، فلما أتاهم الخبير فرحوا به وخرجوا يستقبلونه، فلما حدث بذلك الوليد حسب أنهم جاءوا لقتاله،

فرجع قبل أن يلركوه وأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم منعوا الزكاة ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم غضبا شديدا ، وبينما هو يتحدث نفسه أن يغزوهم إذ أتاه الوفد فقالوا يارسول الله : إنا حُدُّتْنَا أن رسولك رجح من نصف الطريق ، وإنا خشينا أنه إنما رده كتاب جاء منك تغضب غضبته علينا ، وإنا نعوذ بالله من غضبه وغضب رسوله ، فأنزل الله عذرهم في الكتاب فقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ) الآية . أخرجه أحمد وابن أبي حاتم والطبرانى وابن مردويه ، وقال ابن كثير : وهذا من أحسن ما روى في سبب نزول الآية .

وقال الرازى : هذه الرواية ضعيفة لأن إطلاق لفظ الفاسق على الوليد بعيد ، لأنه توهم وظن فأخطأ ، والخطأ لا يسمى فاسقا ، كيف والفاسق في أكثر المواضع يراد به من خرج من رِبَّةِ الإيمان لقوله : « إِنْ اللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ » اهـ .

ثم بين أن صحبه كانوا يريدون أن يتبع رأيهم في الحوادث ، ولو فعل ذلك لوقعوا في العنت والهلاك ، ولكن الله حبب إلى بعضهم الإيمان وزينه في قلوبهم وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وهؤلاء أهل الرشاد والسالكون الطريق السوى .

الإيضاح

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصِيبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ) أى يَا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ إِنْ جَاءَكُمْ الْفَاسِقُ بِأَى نَبَأٍ فَتَوَقَّفُوا فِيهِ وَتَطَلَّبُوا بَيَانَ الْأَمْرِ وَانْكَشَافَ الْحَقِيقَةِ ، وَلَا تَعْتَمِدُوا عَلَى قَوْلِ الْفَاسِقِ ، فَإِنْ مِنْ لَائِبَالٍ بِالْفَسْقِ فَهُوَ أَجْدَرُ الْأَلْبَالِ بِالْكَذْبِ وَلَا يَتَحَامَاهُ — خَشْيَةٌ إِصَابَتِكُمْ بِالْأَذَى قَوْمًا أَتَمَّ جَاهِلُونَ حَالَهُمْ ، فَتَنْدَمُوا عَلَى مَا فَرِطَ مِنْكُمْ وَتَتَمَنَّوْنَ أَنْ لَوْلَمْ تَكُونُوا فَعَلْتُمْ ذَلِكَ .

ثم وعظهم سبحانه بعضه هم أحرى الناس باتباعها فقال :

(واعلموا أن فيكم رسول الله) أى واعلموا أن بين أظهركم رسول الله فمظموه

ووقروه وتآدبوا معه واقادوا لأمره ، فإنه أعلم بمصالحكم وأشفق عليكم منكم ، ورأيه فيكم أتمّ من رأيكم لأنفسكم كما قال تعالى : ﴿ التَّيُّ أَوْلَىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ .
ثم بين أن رأيه أنفع لهم وأجدر بالرعاية فقال :

(لو يطيعكم في كثير من الأمر لعنتم) أى لو سارع إلى ما أردتم قبل وضوح الأمر ، وأجاب ما أشرتم به عليه من الآراء لوقفتم في الجهد والإتم ، ولكنه لا يطيعكم في غالب ما تريدون قبل وضوح وجهه له ، ولا يسارع إلى العمل بما يبلغه قبل النظر فيه .

عن أبي سعيد الخدري أنه قرأ هذه الآية وقال : هذا نبيكم يوحى إليه وخيار أئمتكم لو أطاعهم في كثير من الأمر لعنتوا ، فكيف بكم اليوم ، أخرجه الترمذى .
ثم استدرك على ما سلف لبيان عذر بعضهم فقال :

(ولكن الله حيب إليكم الإيمان وزينه في قلوبكم وكره إليكم الكفر والفسوق والعصيان) أى ولكنّ جمعاً منكم براء بما أتمّ عليه من تصديق الكاذب وتزيين الإيقاع بالبرىء وإرادة أن يتبع الحق أهواءهم ، لأن الله تعالى جعل الإيمان أحب الأشياء إليهم ، فلا يقع منهم إلا ما يوافقهم ويقتضيه من الأمور الصالحة وترك التسرع في الأخبار ، وكره إليهم هذه الأمور الثلاثة : الكفر والفسوق والعصيان .

والخلاصة — إن الإيمان الكامل إقرار باللسان ، وتصديق بالجنان وعمل بالأركان ، فكراهة الكفر في مقابلة محبة الإيمان وتزيينه في القلوب هو التصديق بالجنان ، والفسوق وهو الكذب في مقابلة الإقرار باللسان ، والعصيان في مقابلة العمل بالأركان .

(أولئك هم الراشدون) أى هؤلاء الذين هذه صفاتهم هم السالكون طريق السعادة ولم يميلوا عن الاستقامة .
(فضلاً من الله ونعمة) أى هذا العطاء الذى منحكموه تفضل منه عليكم وإنعام من لدنه .

(والله عليم حكيم) أى والله عليم بمن يستحق الهداية ، ومن يستحق الغواية ، حكيم فى تدبير شئون خلقه وصرفهم فيما شاء من قضائه .

والخلاصة — إن رسول الله بين أظهركم وهو أعلم بمصالحكم ، لو أطاعكم فى جميع ما تمتارونه لأدى ذلك إلى عنتكم ووقوعكم فى مهاوى الردى ، ولكن بعضا منكم حبب إليهم الإيمان فى قلوبهم ، وكره إليهم الكفر والفسوق والعصيان ، وأولئك هم الذين أصابوا الحق وسلكوا سبيل الرشاد .

وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَنفِيَّ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٩) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (١٠)

شرح المفردات

الطائفة : الجماعة أقل من الفرقة بدليل قوله : « فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ » فأصلحوا بينهما : أى فكفوها عن القتال بال نصيحة أو التهديد والزجر والتعذيب ، بغت : أى تعدت وجارت ، تنفى : أى ترجع ، وأمر الله : هو الصلح ، لأنه مأمور به فى قوله : « وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ » فأصلحوا بينهما بالعدل : أى بإزالة آثار القتال بضمان المتلفات بحيث يكون الحكم عادلا حتى لا يودى النزاع إلى الاقتتال مرة أخرى ، وأقسطوا : أى واعدلوا فى كل شأن من شئونكم وأصل الإقساط : إزالة القسط (بالفتح) وهو الجور ، والقاسط : الجائر كما قال : « وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا » والإخوة فى النسب ، والإخوان فى الصداقة ، واحدهم

أخ، وقد جعلت الأخوة في الدين كالأخوة في النسب وكأن الإسلام أب لهم
قال قائلهم :

أبي الإسلام لا أب لي سواه إذا افتخروا بقبائس أو تميم

المعنى الجملى

بعد أن حذر سبحانه المؤمنين من النبا الصادر من الفاسق — بين هنا بار بما
ترتب على خبره من النزاع بين فئتين وقد يشول الأمر إلى الاقتتال ، فطلب من
المؤمنين أن يزيلوا ما نتج من كلامه ، وأن يصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداها على
الأخرى فقاتلوا التي تبغى حتى ترجع إلى الصلح بدفعها عن الظلم مباشرة إن أمكن ،
أو باستعداد الحاكم عليها ، وإن كان الباغى هو الحاكم فالواجب على المسلمين دفعه
بالنصيحة فما فوقها بشرط ألا تثير فتنة أشد من الأولى .

ثم تم الإرشاد وأبان أن الصلح كما يلزم بين الفئتين — يجب بين الأخوين ،
ثم أمرهم بتقوى الله ووجوب اتباع حكمه وعدم الإهمال فيه رجاء أن يرحمهم إذا هم
أطاعوه ولم يخالفوا أمره .

روى قتادة أن الآية نزلت في رجلين من الأنصار كان بينهما مداراة في حق ،
فقال أحدهما للآخر : لآخذنَّ حتى منك عنوة لكثرة عشيرته ، ودعاه الآخر ليحاكمه
إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأبى أن يتبعه ، فلم يزل الأمر بينهما حتى تداخروا وتناول
بعضهم بعضاً بالأيدى والنعال ، ولم يكن قتال بالسيوف .

الإيضاح

(وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما) أى وإن اقتتل طائفتان
من أهل الإيمان ، فأصلحوا أيها المؤمنون بينهما بالدعاء إلى حكم الله والرضا بما فيه ،
سواء كان لهما أو عليهما ، وذلك هو الإصلاح بينهما بالعدل .

(فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تنفيء إلى أمر الله) أي فإن أبت إحدى هاتين الطائفتين الإجابة إلى حكم الله وتمدت ماجمله الله عدلا بين خلقه ، وأجابت الأخرى فقاتلوا التي تعتدى وتأبى الإجابة إلى حكمه حتى ترجع إليه وتخضع طائفة له .

(فإن قامت فأسلحوا بينهما بالعدل) أي فإن رجعت الباغية بعد قتالكم إياها إلى الرضا بحكم الله — فأصلحوا بينهما بالإنصاف والعدل حتى لا يتجدد بينهما القتال في وقت آخر .

ثم أمرهم سبحانه بالعدل في كل أمورهم فقال :
(وأقسطوا إن الله يحب القسطين) أي واعدلوا في كل ما تأتون وما تذكرون ، إن الله يحب العادلين في جميع أعمالهم ويجازيهم أحسن الجزاء .
وفي الصحيح عن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« انصر أخاك ظالما أو مظلوما ، قلت يا رسول الله : هذا نصرته مظلوما ، فكيف أنصره ظالما ؟ قال : تمنعه من الظلم ، فذلك نصرك إياه » .

(إنما المؤمنون إخوة) أي إنهم منقسمون إلى أصل واحد وهو الإيمان الموجب للسعادة الأبدية ، وفي الحديث « المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يعيبه ولا يأخذله ولا يتطاول عليه في البنين فيستر عليه الريح إلا ياذنه ولا يؤذيه بقتار قدره إلا أن يغرف له عرفة ، ولا يشتري لبنه الفاكهة فيخرجون بها إلى صبيان جاره ولا يطعمونهم منها ، ثم قال احفظوا ولا يحفظ منكم إلا قليل » وفي الصحيح أيضا :
« إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب ، قال الملك : آمين ولك بمثله » .

ولما كانت الأخوة داعية إلى الإصلاح ولا بد — تسبب عن ذلك قوله :

(فأصلحوا بين أخويكم) في الدين كما تصلحون بين أخويكم في النسب :

(واتقوا الله) في كل ماتأتون وما تذرّون ، ومن ذلك ما أمرتم به من إصلاح ذات البين .

(لعلكم ترحمون) أي رجاء أن يرحمكم ربكم ويصفح عن سالف إجرامكم إذا أنتم أطيعتموه واتبعتم أمره ونهيه .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرَكُم مِّن قَوْمٍ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءً مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَرُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (١١)

شرح المفردات

السخرية : الاحتقار وذكر العيوب والنقائص على وجه يضحك منه ، يقال سخر به وسخر منه ، وضحك به ومنه ، وهزئ به ومنه ؛ والاسم السخرية والسخرى (بالضم والكسر) وقد تكون بالحاكاة بالقول أو بالفعل أو بالإشارة أو بالضحك على كلام المسخور منه إذا غلط فيه ، أو على صنعته ، أو على قبح صورته ، والقوم : شاع إطلاقه على الرجال دون النساء كما في الآية ، وقال زهير .

وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حِصْن أم نساء

ولا تلمزوا أنفسكم : أي لا يعب بعضكم بعضاً بقول أو إشارة باليد أو العين أو نحوهما ، والمؤمنون كنفس واحدة فتى عب المؤمن المؤمن فكأنما عب نفسه ، والتنازع : التعاير والتداعي بما يكرهه الشخص من الألقاب ، والاسم : الذكر والصيت ، من قولهم : طار اسمه بين الناس بالكرم أو اللؤم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن مع الله تعالى ومع النبي صلى الله عليه وسلم ومع من يخالفهما ويعصيهما وهو الفاسق ، بين ما ينبغى أن يكون عليه المؤمن مع المؤمن ، فذكر أنه لا ينبغى أن يسخر منه ولا أن يعيبه بالهمز واللمز ، ولا أن يلقبه باللقب الذى يتأذى منه ، فبئس العمل هذا ، ومن لم يقب بعد ارتكابه فقد أساء إلى نفسه وارتكب جرماً كبيراً .

روى أن الآية نزلت في وفد تميم إذ كانوا يستهزئون بفقرائ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كهمار وصُهَيْب وبلال وخبَّاب وابن فُهَيْرة وسلمان الفارسي وسالم مولى أبي حذيفة في آخرين غيرهم لما رأوا من رثانة حالهم .

وروى أنها نزلت في صفية بنت حُيَيِّ بن أخطب رضى الله عنها: أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : « إن النساء يقلن لى : يا يهودية بنت يهوديين ، فقال لها : هلا قلت : أبى هارون ، وعمى موسى ، وزوجى محمد » .

الإيضاح

(يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم) أى لا يهزأ ناس من المؤمنين بآخرين : ثم ذكر العلة فى ذلك فقال :

(عسى أن يكونوا خيراً منهم) أى فقد يكون المسخور منهم خيراً عند الله من الساخرين كما جاء فى الأثر « فربَّ أشعث أغبر ذى طِمْرين لا يؤبه له ، لو أقسم على الله تعالى لأبره » .

فينبغى ألا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقحمه عينه لرثانة حاله أو لكونه ذا عاهة فى بدنه أو لكونه غير لبق فى محادثته ، فلعله أخلص ضميراً وأتقى قلباً ممن هو على ضد صفته ، فيظلم نفسه بتحقيق من وقره الله تعالى .

« ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن) أى ولا يسخر نساء من نساء عسى أن يكون المسخور منهن خيراً من الساخرات ، وأتى بالجمع فى الموضوعين ، من قبل أن الأغلب فى السخرية أن تكون فى مجامع الناس ، وكم من متلذذ بها ، وكم من متألم منها .

روى الترمذى عن عائشة قالت : حكيت للنبي صلى الله عليه وسلم رجلاً فقال : « ما يسرنى أى حكيت رجلاً وأن لى كذا وكذا ، قالت فقلت يا رسول الله إن صفية امرأة وقالت^(١) بيدها هكذا تعنى أنها قصيرة ، فقال : لقد مزحت بكلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته »

وروى مسلم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وفى هذا إيحاء إلى أن المرء لا يقطع بمدح أحد أو عيبه كما يرى عليه من صور أعمال الطاعة أو المخالفة فاعلم من يحافظ على الأعمال الظاهرة يعلم الله من قلبه وصفا مذموماً لا تصح معه تلك الأعمال ، ولعل من رأينا منه تفريطاً أو معصية يعلم الله من قلبه وصفا محموداً يغفر له بسببه ، فالأعمال أمارات ظنية ، لا أدلة قطعية .

(ولا تلمزوا أنفسكم) أى ولا يعيب بعضكم بعضاً بقول أو إشارة على وجه الخفية . وفى قوله : « أنفسكم » تنبيه إلى أن العاقل لا يعيب نفسه ، فلا ينبغى أن يعيب غيره لأنه كنفسه ، ومن ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم : « المؤمنون كجسد واحد إن اشتكى عضو منه تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى » وقال عليه الصلاة والسلام : « يبصر أحدكم القذاة^(٢) فى عين أخيه ويدع الجذع فى عينه » .

(١) تطلق العرب القول على جميع الأفعال وتطلقه على غير الكلام واللسان توسعاً فى الاستعمال .

(٢) ما يقع فى العين والماء والتراب من تراب أو تبن أو وسخ أو غير ذلك .

وقيل : من سعادة المرء أن يشتغل بعيوب نفسه عن عيوب غيره . قال الشاعر :

لا تكشفن من مساوى الناس ماستروا فيهتك الله سـترا عن مساويك
واذكر محاسن ما فيهم إذا ذكروا ولا تعب أحداً منهم بما فيك
(ولا تنازروا بالألقاب) أى لا يدع بعضكم بعضاً باللقب الذى يسوءه ويكرهه
كأن يقول لأخيه المسلم : يا فاسق ، يا منافق ، أو يقول لمن أسلم : يا يهودى ،
أو يا نصرانى :

قال قتادة وعكرمة عن أبى جبير بن الضحاك قال : فى بنى سلمة نزلت (ولا
تنازروا بالألقاب) قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة وليس فىنا رجل إلا وله
اسمان أو ثلاثة ، فكان إذا دعا واحدا باسم من تلك الأسماء قالوا : يا رسول الله إنه
يكرهه فنزلت . أخرجه البخارى فى الأدب وأهل السنن وغيرهم .

وأخرج ابن جرير عن ابن عباس قال : التنازير بالألقاب أن يكون الرجل
قد عمل السيئات ثم تاب وراجع الحق ، فنهى الله تعالى أن يعير بما سلف من عمله .
أما الألقاب التى تكسب حمداً أو مدحاً وتكون حقاً وصدقا فلا تكره كما قيل
لأبى بكر : عتيق ، ولعمر : الفاروق ، ولعثمان : ذو النورين ، ولعلى : أبو تراب ، ولخالد
سيف الله .

(بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) أى بئس الذكر المرتفع للمؤمنين أن يذكروا
بالفسوق بعد دخولهم فى الإيمان واشتغالهم به .
وفى هذا إيماء إلى استقباح الجمع بين الأمرين كما تقول بئس الصبوة بعد
الشيخوخة أى معها .

(ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) أى ومن لم يتب من نبره أخاه بما نهى الله
عن نبره من الألقاب أو لمزه إياه أو سخريته منه ، فأولئك هم الذين ظلموا أنفسهم
فأكسبوا عقاب الله بعصيانهم إياه .

يَأْيُهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ (١٢)

شرح المفردات

اجتنبوا: أى تباعدوا، وأصل اجتنبته: كنت منه على جانب، ثم شاع استعماله فى التباعد اللازم له، والإثم: الذنب، والتجسس: البحث عن العورات والمعائب والكشف عماستره الناس، والغيبة: ذكر الإنسان بما يكره فى غيبته فقد روى مسلم وأبو داود والترمذى «أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: أتدرون ما الغيبة؟ قالوا الله ورسوله أعلم، قال: ذكرك أخاك بما يكره، قيل: أفرأيت لو كان فى أخى ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته» .

المعنى الجملى

أدب الله عباده المؤمنين بأداب إن تمسكوا بها كانت محلبة للمودة والوئام بينهم: منها ما تقدم قبل هذا، ومنها ما ذكره هنا، وذلك من الأمور العظام التى تزيد توثيق رباط المجتمع الإسلامى قوة:

(١) البعد عن سوء الظن بالناس وتخونهم فى كل ما يقولون وما يفعلون، لأن بعض ذلك قد يكون إنما محضا فليجتنب كثير منه، وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال: ولا تظنن بكلمة خرجت من أخيك المؤمن إلا خيرا، وأنت تجد لها فى الخير محملا .

(٢) البحث عن عورات الناس ومعايبهم .

(٣) عدم ذكر بعضهم بعضا بما يكرهون فى غيبتهم، وقد مثل الشارع المغتاب

بأكل لحم الميتة استفظاعا له .

قال قتادة : كما تكبره إن وجدت جيفة ممدودة أن تأكل منها ، كذلك فأكبره لحم أخيك وهو حي .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن) أى يأيها الذين آمنوا ابتعدوا عن كثير من الظن بالمؤمنين ، بأن تظنوا بهم سوء ما وجدتم إلى ذلك سبيلاً ، فى الحديث « إن الله حرم من المسلم دمه وعرضه ، وأن يظن به ظن السوء » . ولا يحرم سوء الظن إلا بمن شوهد منه السر والصلاح ، وأونست منه الأمانة ، أما من يجاهر بالفجور كمن يدخل إلى الخانات أو يصاحب الفوانى الفواجر فلا يحرم سوء الظن به .

أخرج البيهقى فى شعب الإيمان عن سعيد بن المسيب قال : كتب إلى بعض إخوانى من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم . أن ضع أمر أخيك على أحسنه ما لم يأتك ما يغبلك ، ولا تظن بك بكلمة خرجت من امرئ مسلم شراً وأنت تجد لها فى الخير محملاً ، ومن عرض نفسه للثم فلا يلومن إلا نفسه ، ومن كتم سره كانت الخيرة فى يده ، وما كانت من عصى الله تعالى فىك بمثل أن تطيع الله فيه ، وعليك بإخوان الصدق فكن فى اكتسابهم ، فإنهم زينة فى الرضاء ، وعدة عند عظيم البلاء ، ولا تتهاون بالحلف فىهينك الله تعالى ، ولا تسألن عما لم يكن حتى يكون ، ولا تضع حديثك إلا عند من تشبهه ، وعليك بالصدق وإن قتلك ، واعتزل عدوك واحذر صديقك إلا الأمين ، ولا أمين إلا من خشى الله ، وشاور فى أمرك الذين يحشون ربهم بالغيب .

ثم علل الأمر باجتناب كثير من الظن بقوله :

(إن بعض الظن إثم) أى إن ظن المؤمن بالمؤمن الشر إثم ، لأن الله قد نهاه عنه ففعله إثم . ونحو الآية قوله : « وَظَنَّتُمْ ظَنَّ السَّوِّءِ وَكُنتُمْ قَوْمًا بُورًا » .

قال ابن عباس في الآية : نهى الله المؤمن أن يظن بالمؤمن سوءا .
ثم لما أمرهم سبحانه باجتناب كثير من الظن نهامهم عن التجسس فقال :
(ولا تجسسوا) أى ولا يتتبع بعضكم عورة بعض ، ولا يبحث عن سرائره
يبتغى بذلك الظهور على عيوبه ، ولكن اقتنعوا بما ظهر لكم من أمره ، وبه فاحدوا
أو ذموا ، لا على ما تعلمون من الخفايا .

وفي الصحيحين عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « إياكم
والظن ، فإن الظن أكذب الحديث ، ولا تجسسوا ولا تحسسوا ولا تناجشوا
ولا تباغضوا ولا تداربوا وكونوا عباد الله إخوانا ، ولا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق
ثلاثة أيام » التجسس : البحث عما يكتُم عنك ، والتجسس : طلب الأخبار والبحث
عنها ، والتناجش : البيع على بيع غيرك (الزيادة عليه) والتدارب : الهجر والقطيعة .

وعن أبي بَرزَةَ الأسلمى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يا معشر من
آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ولا تتبعوا عوراتهم ، فإن من
اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في عُقر بيته » .

وروى الطبرانى عن حارثة بن النعمان رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله
عليه وسلم « ثلاث لازمت لأمتي : الطَّيْرَةُ والحسد وسوء الظن ، فقال رجل
وما يذهبن يا رسول الله من هن فيه ؟ قال صلى الله عليه وسلم : إذا حسدت
فاستغفر الله ، وإذا ظننت فلا تحقق ، وإذا تطيرت فامض » .

وقال عبد الرحمن بن عوف : حرسنا ليلة مع عمر بن الخطاب بالمدينة ؛ إذ تبين
لناسراج في بيت بابه مخاف على قوم لهم أصوات مرتفعة وانط ، فقال عمر : هذا
بيت ربيعة بن أمية بن خلف وهم الآن شَرِب ، فما ترى ؟ قلت : أرى أنا قد
أتينا مانهى الله عنه ، قال تعالى : « وَلَا تَجَسَّسُوا » وقد تجسسنا ، فانصرف
عمر وتركهم .

وقال أبو قلابة : حَدَّثَ عمر بن الخطاب أن أبا محجَّجٍ الثقفى يشرب الخمر مع أصحاب له فى بيته ، فانطلق عمر حتى دخل عليه ، فإذا ليس عنده إلا رجل ، فقال أبو محجج : إن هذا لا يجل لك ، قد نهاك الله عن التجسس . فخرج عمر وتركه .

(ولا يقرب بعضكم بعضاً) أى ولا يذكر بعضكم بعضاً بما يكره فى غيبته ، والمراد بالذكر الذكر صريحاً أو إشارة أو نحو ذلك مما يؤدى مؤدى النطق ، لما فى ذلك من أذى المقتاب ، وإيغار الصدور وتفريق شمل الجماعات ، فهى النار تشتعل فلا تبقى ولا تذر ، والمراد بما يكره ما يكرهه فى دينه أو دنياه أو خلقه أو خلقه أو ماله أو ولده أو زوجته أو خادمه أو ملبسه أو غير ذلك مما يتعلق به .

قال الحسن : الغيبة ثلاثة أوجه كلها فى كتاب الله : الغيبة ، والإفك ، والبهتان .

(١) فأما الغيبة فهى أن تقول فى أخيك ما هو فيه .

(٢) وأما الإفك فأن تقول فيه ما بلبك عنه .

(٣) وأما البهتان فأن تقول فيه ما ليس فيه .

ولا خلاف بين العلماء فى أن الغيبة من الكبائر وأن على من اغتاب أحداً التوبة إلى الله أو الاستغفار لمن اغتابه أو الاستحلال منه .

وعن شعبة قال : قال لى معاوية بن قرّة : لو مرّ بك رجل أقطع (مقطوع اليد) قتل هذا أقطع كان غيبة ، قال شعبة فذكرته لأبى إسحاق فقال صدق .

ثم ضرب سبحانه مثلاً للغيبة للتنفير والتحذير منها فقال :

(أحبب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه) أى أحبب أحدكم أن يأكل لحم أخيه بعد مماته ؟ فإذا كنتم لا تحبون ذلك بل تكرهونه لأن النفس تعافه ، فكذلك فاكروهوا أن تتأبوه فى حياته .

والخلاصة — إنكم كما تكرهون ذلك طبعاً فاكروهوا ذلك شرعاً لما فيه من

شديد العقوبة .

وقد شبهت بأكل اللحم لما فيها من تمزيق الأعراض المشابه لأكل اللحم وتمزيقه ، وقد جاء هذا على نهج العرب في كلامهم . قال المقتنع الكِندي :

فإن أكلوا لحمي وفرت لحومهم وإن هدموا مجدي بنيت لهم مجداً

وقد زادت الآية فجعلت اللحم لحم أُنح ميت تصويراً له بصورة بشعة تستقذرها النفوس جميعاً .

سمع علي بن الحسين رضي الله عنهما رجلا يفتاب آخر فقال : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس ، وقيل لعمر بن عُبيد : لقد وقع فيك فلان حتى رحمنك ، قال : إياه فارحموا .

وقال رجل للحسن البصري : بلغني أنك تغتابني ، فقال : لم يبلغ قدرك عندي أن أحكمك في حسناتي .

وقد ثبت في الصحيح من غير وجه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال حين خطب في حجة الوداع : « إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا » .

(واتقوا الله) أى فاكروهوا الغيبة واتقوا الله فيما أمركم به ونهاكم عنه وزاقبوه واخشوه .

ثم علل هذا بقوله :

(إن الله تواب رحيم) أى إن الله يتوب على من تاب إليه عما فرط منه من الذنب ، رحيم به أن يعذبه بعد توبته .

ويجب على المقتاب أن يبادر إلى التوبة حين صدورها منه ، بأن يقلع عنها ويندم على ما فرط منه ، ويعزم عزمًا مؤكدًا على ألا يعود إلى مثل ما فرط منه .

ولا تحرم الغيبة إذا كانت لغرض صحيح شرعًا لا يتوصل إليه إلا بها ، وينحصر ذلك في ستة أمور :

- (١) التظلم ، فلن ظلم أن يشكولمن يظن أنه يقدر على إزالة ظلمه أو تخفيفه .
 (٢) الاستماعة على تمييز المنكر بذكره لمن يظن قدرته على إزالته .
 (٣) الاستفتاء فيجوز المستفتى أن يقول للمفتى : ظلمنى فلان بكذا فهل يجوز له ذلك ؟ .

(٤) تحذير المسلمين من الشر كجرح الشهود والرواة والمتصددين للإفتاء مع عدم أهليتهم لذلك ، وكان يشير وإن لم يُستشر على مرید التزوج أو مخالطة غيره فى أمر دينى أو دنيوى ويقتصر على ما يكفى ، فإن احتاج إلى ذكر عيب أو عيبين ذكر ذلك .

(٥) أن يجاهروا بالفسق كالدمنين على شرب الخمر وارتداد محال الفجور ، ويتباهوا بما يفعلون .

(٦) التعريف بقلب أو نحوه كالأعور والأعمش ونحو ذلك إذا لم تمكن المعرفة بغيره .

والأمة مجمعة على قبح الغيبة وعظم آثامها مع ولوع الناس بها حتى إن بعضهم يقولون : هى صابون القلوب ، وإن لها حلاوة كحلاوة التمر ، وضراوة كضراوة الخمر .

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (١٣) .

شرح المفردات

من ذكر وأنثى : أى من آدم وحواء ، قال على كرم الله وجهه :
 الناس فى عالم التمثيل أ كفاء أبوم آدم والأم حواء
 فإن يكن لهم فى أصلهم شرف يفاخرون به فالطين والماء

والشعوب : واحد هم شعب (بفتح الشين وسكون العين) وهو الحى العظيم المنتسب إلى أصل واحد كريمة ومضر ، والقبيلة دونه ك بكر من ربيعة وتميم من مضر . وحكى أبو عبيدة أن طبقات النسل التى عليها العرب سبع : الشعب ثم القبيلة ثم العارة ثم البطن ثم الفخذ ثم الفصيلة ثم العشيرة ، وكل واحد منها يدخل فيما قبله ، فالقبائل تحت الشعوب ، والعارى تحت القبائل ، والبطنون تحت العارى ، والأفخاذ تحت البطنون ، والفصائل تحت الأفخاذ ، والعشائر تحت الفصائل ، فخرمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة (بفتح العين وكسرها) وقصى بطن ، وعبد مناف فخذ وهاشم فصيلة ، والعباس عشيرة ، وسمى الشعب شعبا لتشعب القبائل منه كتشعب أغصان الشجرة .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه فيما سلف عن السخرية بالناس والازدراء بهم ، وعن المز والتنازير بالألقاب — ذكر هنا ما يؤكد النهى ويؤيد ذلك المنع ، فبين أن الناس جميعا من أب واحد وأم واحدة ، فكيف يسخر الأخ من أخيه ؟ إلى أنه تعالى جعلهم شعوبا وقبائل مختلفة ، ليحصل بينهم التعارف والتعاون في مصالحهم المختلفة ، ولا فضل لواحد على آخر إلا بالتقوى والصلاح وكال النفس ، لا بالأمر البدنيوية الزائلة .

ذكر أبو داود أن الآية نزلت في أبى هند وكان حجام النبى صلى الله عليه وسلم قال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بنى بياضة أن يزوجوا أباهند امرأة منهم فقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : تزوج بناتنا موالينا ؟ فأنزل الله عز وجل : « إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ » الآية .

الإيضاح

(يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى) أى إنا أشأنناكم جميعا من آدم وحواء، فكيف يسخر بعضكم من بعض، ويلمز بعضكم بعضا وأتم إخوة فى النسب، وبميد أن يعيب الأخ أخاه أو يلمزه أو ينبزه .

وعن أبى مُليكة قال : لما كان يوم فتح مكة رقى بلال فأذن على ظهر الكعبة فقال عتّاب بن أسيد بن أبى العيص : الحمد لله الذى قبض أبى حتى لا يرى هذا اليوم . وقال الحرث بن هشام : ما وجد محمد غير هذا الغراب الأسود مؤذنا ، وقال سهيل ابن عمرو : إن يرد الله شيئا يغيره ، فأتى جبريل النبي صلى الله عليه وسلم وأخبره بما قالوا ، فدعاهم وسألهم عما قالوا فأقروا فأنزل الله الآية زجرا لهم عن التفاخر بالأنساب والتكاثر بالأموال والازدراء بالفقراء ، وبين أن الفضل بالتقوى .

وروى الطبرى قال : « خطب رسول الله بمبى فى وسط أيام التشريق وهو على بعير فقال :

يأيها الناس ألا إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ألا لافضل لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأسود على أحر ، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى ألا هل بلغت ؟ قالوا نعم ، قال : فليبلغ الشاهد الغائب » .

وعن أبى مالك الأشعمرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله لا ينظر إلى أحسابكم ولا إلى أنسابكم ولا إلى أجسامكم ولا إلى أموالكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم ، فمن كان له قلب صالح تحنن الله عليه ، وإمّا أتم بنو آدم ، وأحبكم إليه أتقاكم » .

(وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا) أى للتعارف لا للتناكر ، واللمز والسخرية والغيبة تقضى إلى ذلك .

ثم ذكر سبب النهي عن التفاخر بالأنساب بقوله :

(إن أكرمكم عند الله أتقاكم) أى إن الأكرم عند الله الأرفع منزلة لديه عز وجل فى الآخرة والدنيا هو الأتقى ، فإن فاخرتم ففاخروا بالتقوى ، فمن رام نيل الدرجات العلا فعليه بها .

روى ابن عمر رضى الله عنهما « أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب الناس يوم فتح مكة وهو على راحلته فحمد الله وأثنى عليه بما هو له أهل ثم قال : أيها الناس إن الله قد أذهب عنكم عيبَةَ الجاهلية وتعظمها بآبائها ، فالناس رجلان : رجل برئى تقى كريم على الله ، ورجل فاجر شقى هين على الله تعالى ، إن الله عز وجل يقول : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم) ثم قال : أقول قولى هذا ، وأستغفر الله لى ولكم .

(إن الله عليم خبير) أى إن الله عليم بكم و بأعمالكم ، خبير بباطن أحوالكم ، فاجعلوا التقوى زادكم لدى معادكم .

قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٤) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ (١٥) قُلْ أَتَمَعُمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (١٦) يُعْمِنُونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا ،

قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ
 إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٧) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ
 بَصِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٨)

شرح المفردات

الأعراب : سكان البادية ، آمناً : أى صدقنا بما جئت به من الشرائع وامثلنا
 ما أمرنا به ، فالإيمان هو التصديق بالقلب ، أسلمنا : أى اتقنا لك ودخلنا فى السلم
 وهو ضد الحرب : أى فلسنا حرباً للمؤمنين وعونا للمشركين ، لا يلتكم : أى لا ينقصكم ،
 يقال لاته يليته إذا نقصه ، حكى الأصمعى عن أم هشام السلوية « الحمد لله الذى
 لا يفات ولا يلات ولا تُصمهُ الأصوات » ينون عليك : أى يذكرون ذلك ذكر
 من اصطنع لك صنيعاً ، وأسدى إليك نعمة .

المعنى الجملى

بعد أن حث الناس على التقوى — وتوخ من فى إيمانه ضعف من الأعراب
 الذين أظهروا الإسلام وقلوبهم وغلة ، لأنهم كانوا يريدون المغانم وعرض الدنيا ،
 إذ جاءوا فى سنة مجدية ، وكانوا يقولون لرسوله صلى الله عليه وسلم : جئناك بالانتقال
 والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك بنو فلان ، يريدون بذكر ذلك الصدقة والمن على النبى
 صلى الله عليه وسلم ، فأطلع الله نبيه على مكنون ضمائرهم ، وأنهم لم يؤمنوا بإيماننا
 حقيقياً ، وهو الذى وافق القلب فيه اللسان ، وأمرهم أن يقولوا : استسلمنا وخضعنا ،
 ثم أخبرهم بأنهم إن اتقوا الله حق تقاته وقام أجورهم كاملة غير منقوصة ، ثم بين أن
 من علامة الإيمان الكامل التضحية بالنفس والمال فى سبيل الله ببذلها فى تقوية دعائم
 الدين وإعلاء شأنه وخضد شوكة العدو بكل السبل الممكنة ، ثم أعقب هذا بأن الله

يعلم ما هم عليه من إيمان ضعيف أو قوى ؛ إذ لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ، وأنه لا ينبغي للمؤمن أن يمتنّ على الرسول بإيمانه ، بل من حق الرسول أن يمتنّ عليه بأن وفقه إلى الهداية على يديه إن كان صادق الإيمان ، ثم ختم الآيات بالإخبار عن واسع علمه ، وإحاطته بمكنون سرّ خلقه في السموات والأرض لا يعزب عنه مثقال ذرة فيهما ، وهو البصير بما يعمل عباده من خير أو شر ، قال مجاهد : نزلت في أعراب من بنى أسد بن خزيمه (وكانوا يجاورون المدينة) قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأظهروا الشهادات ولم يكونوا مؤمنين حقاً .
وقال السُدّيّ : نزلت في الأعراب المذكورين في سورة الفتح : أعراب مزيّنة وجُهينة وأسلم وغفار والدليل وأشجع ، قالوا آمنا لياًمنوا على أنفسهم وأموالهم ، فلما استنّفروا إلى المدينة تخلفوا .

الإيضاح

(قالت الأعراب آمنا) أى قالت الأعراب : صدقنا بالله ورسوله ونحن له مؤمنون فردّ الله عليهم مكذباً لهم مع عدم التصريح بذلك فقال :
(قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلنا) أى قل لهم : إن الإيمان هو التصديق مع طمأنينة القلب والوثوق بالله ولم يحصل لكم بعد ، بدليل أنكم منتم على الرسول بترك مقاتلته ، ولكن قولوا : أئقنا لك ، واستسلمنا ولا ندخل معك في حرب ، ولا نكون عوناً لعدوك عليك .

وجاءت الآية على هذا الأسلوب ، ولم يقل لهم كذبتهم ، ولكن قولوا أسلنا ، حملاً له عليه السلام على الأدب في التخاطب ليتأسى به أتباعه ، فيلينوا لمن يخاطبونهم في القول .

(ولما يدخل الإيمان في قلوبكم) أى قولوا أسلنا فحسب ، لأنه لم يدخل الإيمان

في قلوبكم بعدُ ، إذ لم يوافق القلب ما جرى به اللسان ، ولم يكن لشرائع الدين ولا آدابه أثر في أعمالكم ، فلم تتغذَّ بها أرواحكم ، ولم تصطبغ بهديها نفوسكم .

قال الزجاج : الإسلام إظهار الخضوع وقبول ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم وبذلك يحقن الدم ، فإن كان مع ذلك الإظهار اعتقاد وتصديق بالقلب فذلك هو الإيمان وصاحبه المؤمن اه .

(وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً) أى وإن تطيعوا الله ورسوله وتخلصوا له في العمل وتتركوا النفاق لا ينقص سبحانه من أجوركم شيئاً ، بل يضاعف ذلك أضعافاً كثيرة .

ولما كان الإنسان كثير المغفوات مهما اجتهد - ذكر أنه غفور لزلزلاته فقال :
(إن الله غفور رحيم) أى إنه ستار للمغفوات ، غفار لزلزلات من تاب وأناب وأخلص لربه ، رحيم به أن يعذبه بعد التوبة ، بل يزيد في إكرامه ، ويصفح عن آثامه .

ثم بين سبحانه حقيقة الإيمان بقوله :

(إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون) أى إنما المؤمنون حق الإيمان الذين صدقوا الله ورسوله ثم لم يشكوا ولم يترددوا بل ثبتوا على حال واحدة ، وبذلوا مهجهم ونفوس أموالهم في طاعة الله ورضوانه - أولئك هم الصادقون في قولهم : آمنا ، لا كععض الأعراب الذين ليس لهم من الإيمان إلا الكلمة الظاهرة ، وقد دخلوا الملة خوفاً من السيف ليحقنوا دماءهم ويحفظوا أموالهم .

ثم أكد ما سبق من قوله : لم تؤمنوا بقوله :

(قل أتعلمون الله بدينكم؟) أى قل لهم : أتخبرون الله بما في ضمائركم ، وما تنطوى عليه جوارحكم من صادق الإيمان بقولكم : آمنا حقاً .

(والله يعلم ما فى السموات وما فى الأرض) فلا يخفى عليه مثقال ذرة فىهما .
وفى هذا تجهيل وتوبيخ لهم لا يخفى أمره .

(والله بكل شىء عليم) فاحذروا أن تقولوا خلاف ما يعلم من ضمائر صدوركم
فتنالكم عقوبته ، إذ لا يخفى عليه شىء .

(يؤمنون عليك أن أسلموا) أى يعدّون إسلامهم ومتابعتهم لك ونصرتهم إياك
منّة يطلبون منك أجرها ، فقد قالوا جنناك بالأثقال والعيال ولم نقاتلك كما قاتلك
بنو فلان وبنو فلان .

ثم أمر الله سبحانه رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوله لهم عند المنّ عليه
بما يدعونهم من الإسلام فقال :

(قل لا تمنوا على إسلامكم) أى لا تعدوا إسلامكم الذى سميتموه إيمانا منة على ،
فإن الإسلام هو المنّة التى لا يطلب مؤيها ثوابا لمن أنعم بها عليه ، ومن ثم قال :
(بل الله بمنّ عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم صادقين) أى بل الله هو الذى
يمن عليكم ، إذ أمدم بتوقيفه وهدايته للإيمان إن كنتم صادقين فى إيمانكم .
وفى هذا إيماء إلى أنهم كاذبون فى ادعائهم الإيمان .

روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال للأنصار يوم حنين « يا معشر الأنصار ،
ألم آتكم ضلّالا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟
قالوا بلى ، الله ورسوله أمنّ وأفضل . »

والخلاصة — أن الله تعالى سمى ما كان منهم إسلاما وخضوعا لا إيمانا إظهارا
لكذبهم فى قولهم آمنا ، ثم لما منوا على رسول الله بما كان منهم قال سبحانه لرسوله:
أيعتدون عليك بما ليس جديرا أن يعتد به من إسلامهم الذى سموه إيمانا وليس
بذلك ؟ بل الله هو الذى يعتد عليهم إيمانهم إن صدقوا ، فهو قد أمدم بهديه وتوقيفه .
ثم أعاد الإخبار بعلمه بجميع الكائنات وبصره بأعمال المخلوقات فقال :

(إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون) أى إن الله يعلم ماغاب فيهما ، وهو بصير بسرکم وعلانیتکم ، لا يخفى عليه ما فى ضمائرکم .
وفى ذلك رمز إلى أنهم كاذبون فى إيمانهم ، وإعلان للنبي صلى الله عليه وسلم وأتباعه من المؤمنين بما فى أنفسهم .

خلاصة ما تضمنته السورة الكريمة

مباحث هذه السورة قسمان : قسم بين النبي صلى الله عليه وسلم وأمته ، وقسم يخص أمته وهو إما ترك للرذائل وإما تحلية بالفضائل . والقسم الأول هو :

(١) ألا يقضى المؤمنون فى أمر قبل أن يقضى الله ورسوله فيه .
(٢) الهيبة والإجلال لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وألا تتجاوز أصواتهم صوته
(٣) ألا يخاطبوه باسمه وكنيته كما يخاطب بعضهم بعضا ، بل يخاطبونه بالنبي والرسول .

(٤) إن الذين يحفضون أصواتهم عند رسول الله أولئك هم المتقون .
(٥) إن من نادوه من وراء الحجرات كعُيُنة بن حصن ومن معه أكثرهم لا يعقلون .

(٦) ذمّ المنّ على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بالإيمان .
والقسم الثانى هو :

(١) ألا نسمع كلام الفاسق حتى نتثبت منه وتظهر الحقيقة .
(٢) إذا بغت إحدى طائفتين من المؤمنين على أخرى وجب قتال الباغية حتى تفتى إلى أمر الله .

(٣) حبيب الله الصلح بين المؤمنين .
(٤) النهى عن السخرية والمز والتناز .
(٥) النهى عن سوء الظن بالمسلم وعن تتبع العورات المستورة وعن القيبة والنميمة .
(٦) الناس جميعا سواسية مخلوقون من ذكر وأنثى ، لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى .

سورة ق

هي مكية إلا آية ٣٨ مدنية، وعدة آياتها خمس وأربعون، نزلت بعد المرسلات . ومناسبتها لما قبلها أنه أشار في آخر السورة السابقة إلى أن إيمان أولئك الأعراب لم يكن إيماناً حقا ، وذلك يقتضى إنكار النبوة وإنكار البعث ، وافتتح هذه السورة بما يتعلق بذلك .

حدّث مسلم وغيره عن جابر بن سمرة أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ هذه السورة في الركعة الأولى من صلاة الفجر .

وأخرج أحمد ومسلم وأبو داود والنسائي عن أبي واقد الليثي « أنه صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في العيد بقاف واقتربت » .

وأخرج أبو داود والبيهقي وابن ماجه عن أم هشام بنته حارثة قالت « ما أخذت (ق) والقرآن المجيد) إلا من في رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بها في كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس » .

وكل ذلك دليل على أنه كان يقرأ بها في الجامع الكبيرة كالعيدين والجمع ، لاشتهائها على ابتداء الخلق والبعث والنشور والمعاد والحساب والجنة والنار والثواب والمعاقب والترغيب والترهيب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (١) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقَالَ الْكَاْفِرُونَ هَذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ (٢) أءَذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (٣) قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ (٤) بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (٥)

شرح المفردات

المجيد من المجد ، وهو كما قال الراغب: السعة في الكرم من قولهم: مجدت الإبل إذا وقعت في مرعى كثير واسع ، وُصف به القرآن لكثرة ما تضمنه من المكارم الدنيوية والأخروية ، زجع بعيد : أى بعث بعد الموت بعيد عن الأوهام ، ما انتقص الأرض : أى ماتا كل من لحوم موتاهم وعظامهم ، حفيظ : أى حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ، بالحق : أى بالنبوة الثابتة بالمعجزات ، مريح : أى مضطرب من قولهم: مرج الخاتم في إصبعه إذا قلق من الهزال .

الإيضاح

(ق) تقدم أن قلنا غير مرة إن الحروف المفردة التي جاءت في أوائل السور حروف لتنبية السامع إلى ما يرد بعدها ، وأكثر ما جاء ذلك إذا ورد بعدها وصف القرآن كما هنا .

(والقرآن المجيد) أقسم الله سبحانه بكتابه الكثير الخير والبركة — إنك أيها الرسول جئتكم منذرا بالبعث ، يدل على ذلك قوله تعالى « يس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ — إلى أن قال — لَتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ » .

(بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم) أى إنك جئتكم منذرا بالبعث فلم يقبلوا ولم يكتفوا بالشك في أمرك وردّ رسالتك ، بل جزموا بنفيها ، وجعلوها من عجائب الأمور التي تستحق الدهشة ، وكثير التأمل والاعتبار .

ثم فسر تعجبهم وفصل محل التعجب وهو إنذاره بالقرآن فقال :

(فقال الكافرون هذا شيء عجيب) أى فقال المكذبون بالله ورسوله من قريش

إذ جاءهم منذر منهم : هذا شيء عجيب أى إن محمداً رجلاً منا برسالة من الله إلينا

أمر عجيب ، هلا أنزل إلينا ملكا فيكون لنا نذيرا ، كما حكي عنهم من قولهم :
« أَبَشْرًا مِثًّا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ » وقوله حكاية عنهم « قَالُوا مَا أَتَمُّ إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُنَا » .

وبعد أن أظهروا التعجب من رسالته أظهروا استبعاد ما جاء به فقالوا :

(أنذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد) أى أحين نموت ونصير ترابا نرجع
كما يقول النذير ؟ إن ذلك الرجوع بعد الموت لبعيد عن الأوهام لا يصدقه العقل
وتحمله العادة .

ثم أشار إلى دليل جواز البعث وقدرته تعالى عليه فقال :

(قد علمنا ماتنقص الأرض منهم) أى قد علمنا ماتنا كل الأرض من لحوم
موتاهم وعظامهم ، ولا يخفى علينا أين تفرقت الأبدان ، وأين ذهبت ، وإلى أين
صارت ؟ فلا يصعب علينا البعث ولا يستبعد .

ثم أكد علمه بجميع الأشياء فقال :

(وعندنا كتاب حفيظ) أى وعندنا كتاب حافظ لتفاصيل الأشياء كلها ،
وهذا تمثيل لحال علمه تعالى للكائنات جميعا علما كاملا يعلم من عنده كتاب حفيظ
يتلقى منه كل شيء ، فيضبط ما يعلم أتم الضبط ويحصيه أكل الإحصاء .

ثم حكى عنهم ما هو أفظع من تعجبهم وهو تكذيبهم بالنبوة الثابتة بالمعجزات
من أول وهلة بلا تدبر ولا تفكير فقال :

(بل كذبوا بالحق لما جاءهم) أى بل كذبوا بالنبوة التي قامت الأدلة على صدقها
وأيدتها المعجزات الباهرة ، وهم إذا كذبوا بها فقد كذبوا بما أنبأ به الرسول من
البعث وغيره ، ولا شك أن هذا الإنكار أعظم جرما وأشد بلية من الإنكار بما جاء
به الرسول ، إذ به أنكروا الصلة الروحية بين الله ومن يصطنيه من خلقه من ذوى
النفوس الصافية وأرباب الأرواح العالية .

(فهم في أمر مريج) أى فهم في قلق واضطراب ، فتارة يفنون الرسالة عن البشر،

وأخرى يزعمون أنها لاتليق إلا بأهل الجاه والرياسة كما نبى بهذا قولهم : « لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِّنَ الْقَرَوَاتِينِ عَظِيمٍ » وثالثة يقولون : إنها سحر أو كهانة إذ قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم : ساحر أو كاهن إلى نحو ذلك من أقوالهم التي تدل على اضطراب فى الأمر وقلق فى الفكر ، فهم لا يدرون ماذا يفعلون حين جاءهم النذير الذى أفض مضاجعهم ، وجعلهم حيارى دهشين ، إلام هم صائرون ؟ وإلى أى منقلب ينقلبون ؟

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَّزْجًا وَبَارَكْنَا فِيهَا رَبِّهِمْ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ أُمَّةٍ وَمِنْهَا الْحَيَاةُ وَالْمَوْتُ وَمَا يَنْظُرُونَ (٨) وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جِبْتَاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لِّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ (١٠) رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْمِينَآ بِهِ بِلْدَةٍ مِّمَّتَا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ (١١)

شرح المفردات

بنيناها : أى أحكنا بناءها ، فجعلناها بغير عمد ، وزيناها : أى بالكواكب ، فروج . أى شقوق ، مددناها : أى بسطانها ، رواسى : أى جبالا ثوابت تمنعها من الميد والاضطراب ، زوج : أى صنف ، بهيج : أى ذى بهجة وحسن ، تبصرة وذكرى : أى تبصيرا وتذكيرا ، منيب : من أناب إذا رجع وخضع ، حب الحصيد : أى حب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالبر والشعير ، باسقات : أى طويلات ،

والطلع ما ينمو ويصير بلحا ثم رطباً ثم تمراً ، ونضيد : أى منضود بعضه فوق بعض ،
الخروج : أى من القبور .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنهم استبعدوا البعث فقالوا رجع بعيد — أردف ذلك بالدليل
الذى يدحض كلامهم ، فإن من خلق السماء وزينها بالكواكب ، وبسط الأرض
وجعل فيها رواسى وأثبت فيها صنوف النبات ، وجعل ذلك تذكرة وتبصرة
لأولى الألباب ، ونزل من السماء ماء فأثبت به ناضر الجنان ، والزرع المختلف
الأصناف والألوان ، والنخل الباسق ذا الطلع المتراكم بعضه فوق بعض رزقا لعباده ،
وأحيا به الأرض الموات — أفلا يستطيع من هذا شأنه أن يخرج الناس من قبورهم
بعد بلامهم وبعد أن يصيروا عظاما ورفاتا ، وينشئهم خلقا آخر فى حياة أخرى وعالم
غير هذا العالم ؟

الإيضاح

(أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج) أى أفلم
ينظر هؤلاء المكذبون بالبعث بعد الموت المنكرون قدرتنا على إحيائهم بعد البلى —
إلى السماء فوقهم كيف رفعناها بلا عمد ، وزيناها بالكواكب وما لها من فتوق ، فهى
ملساء متلاصقة الطباق ، وهذا هو رأى الحديث فى عالم السموات ، إذ يقولون
إن هناك عالما لطيفا أرق من الهواء وألطف من كل ما نراه وهو مبدأ كل شىء وأول
كل شىء وهو العالم المسمى بالآثير ، وهذا العالم وإن لم يره الناس فقد عرفوه من
وصول أضواء الكواكب إلينا ، فإن من الكواكب ما لا يصل ضوءه إلينا إلا فيما
يزيد على ألف سنة ، ونور الشمس (التى تبعد عنا مقدار سير القطار إليها

لو أمكن في نحو خمس وستين وثلاثمائة سنة) يصل إلينا في مدة ثمان دقائق وثمانى عشرة ثانية .

فانظر كيف يكون بُعد تلك الكواكب التي تحتاج بسير النور إلى مليون سنة ونصف مليون ؛ ألا يدل هذا على أن ذلك الضوء محمول على شيء موجود وهو الأثير فلو أن طبقة من الطبقات لم يكن فيها الأثير لانقطع سير النور إلى الأرض ولم نره . وهذا ما يشير إليه الكتاب بقوله : « وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ » فلو كان هناك فروج تتخلل السموات لانقطع سير النور إلينا .

وأراء الجهة في كل أمة أن كل سماء منفصلة عن الأخرى وبينهما فضاء كما يظن لأول وهلة فيما بيننا وبين السماء ، فجاء الكتاب الكريم وعكس هذه القضية وقال لافروج في السماء أى لأخلاء في العالم .

(والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج)
أى والأرض بسطناها وألقينا فيها جبالات ثابتة لئلا تميد وتضطرب ، وأنبتنا فيها من كل صنف من صنوف النبات ما حسن منظره ، وراق مخبره .

(تبصرة وذكرى لئكل عبد منيب) أى فعلنا ذلك لتبصرة العبد المنيب وادكاره ، فإن رفعت السماء أو زيتنها بالكواكب فلاستبصاره ، وإن بسطت الأرض أو أرسيتها بالجمال أو أنبت النبات زينة للأرض فلاعتبره .

ثم شرع يبين كيفية ما ذكر من إنبات كل زوج بهيج فقال :
(ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحبّ الحصيد) أى ونزلنا من السماء ماء كثير المنافع ، إذ أنبتنا به جنات غناء ، وحدائق فيحاء ، وحب الزرع الذى من شأنه أن يحصد كالشعير والقمح وغيرها .

(والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد) أى وأنبتنا به النخل الطوال التى لها طلع منضود متراكم بعضه فوق بعض ، لأقوات العباد وأرزاقهم .

عن قطبة قال : «سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في الصباح قَـلَمَا آتَى عَلَى هَذِهِ الْآيَةِ - وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ - فَجَعَلَتْ أَقْوَلُ مَا بَسَوْقَهَا ؟ قَالَ طَوَّلَهَا » أخرجه الحاكم وصححه وابن مردويه .

ولم يقيد هنا العباد بالإنباء كما قيد به في قوله : « تَبَصَّرَةٌ وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ » لأن التذكير لا تكون إلا لمنيب ، والرزق يعم كل أحد ، غير أن المنيب يأكل ذاكراً وشاكراً للإنعام ، وغيره يأكل كما تأكل الأنعام ، ومن ثم لم يخص الرزق بقيد .

(وأحيينا به بلدة ميتاً) أى وأحيينا بذلك الماء الأرض الجديدة التي لانبث فيها فَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ .
ثم جعل ماسلف كالدليل على البعث لأنه شبيه به فقال :

(كذلك الخروج) أى ومثل هذه الحياة البديعة حياتكم بالبعث من القبور .
وفي التعبير عن إخراج النبات من الأرض بالإحياء ، وعن إحياء الموتى بالخروج تفخيم لشأن الإنبيات وتهوين لأمر البعث ، وتحقيق المماثلة بين إخراج النبات وإحياء الموتى لتوضيح منهاج القياس ، وتقريبه لأفهام الناس .

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (١٢) وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ
وَإِخْوَانُ لُوطٍ (١٣) وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ
كَفَّ وَعَيْدِ (١٤) أَفَعَيْنَا بِالْأَوَّلِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ
جَدِيدٍ (١٥) .

شرح المفردات

الرس : البئر التي لم تطو أى لم تبني ، وأصحابه هم من بعث إليهم شعيب عليه الصلاة والسلام ، والأيكَة : الغنضة الملتفة الشجر ، تبع : هو تبع الحميري ، والمعنى

عن الأمر. العجز عنه : قال الكسائي تقول أعيتت من التعب ، وعيتت من العجز عن الأمر وانقطاع الحيلة ، ولبس : أى شك شديد وحيرة واختلاط .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر تكذيب المشركين للرسول صلى الله عليه وسلم — أردف ذلك بذكر المكذبين للرسول من قبله وبيان ما آل إليه أمرهم ، تسليمة لرسوله صلى الله عليه وسلم وعبرة لهم ، وتنبيها إلى أن حاله معهم كحال من تقدمه من الرسل ، كذبوا فصبروا فأهلك الله مكذبيهم ونصرهم وأعلى كلمتهم كما قال : « وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ » وقال : « وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ . إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ . وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْعَالَمُونَ » .

وبعد أن ذكر دلائل الآفاق من خلق السموات والأرض أعقبه بذكر دلائل الأنفس كما قال : « سَتَرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ » .

الإيضاح

(كذبت قبلهم قوم نوح وأصحاب الرس وثمود . وعاد وفرعون وإخوان لوط . وأصحاب الأيكة وقوم تبع ، كل كذب الرسل فحق وعيد) هدد سبحانه كفار قريش بما أحله بأشباههم ونظرأهم من المكذبين قبلهم من النقم والعذاب الأليم في الدنيا والآخرة ، فقد أغرق قوم نوح بالطوفان ، وأهلك جميع من ذكروا بعدهم من الأمم التي كذبت رسلها بضروب شتى من العذاب ، وحق عليهم وعيد ربهم ، ونصر الله أنبياءه وأعلى كلمتهم وكانت العاقبة للمتقين ، وقد تقدمت هذه القصص في مواضع متفرقة من الكتاب الكريم .

ثم ذكر ما يؤكده صحة البعث الذي أنكرته الأمم المكذبة فقال :
(أفعمينا بالخلق الأول ؟ بل هم في لبس من خلق جديد) أى أفأعجزنا ابتداء

الخلق حتى يشكوا في الإعادة ؟ أى إن ابتداء الخلق لم يعجزنا والإعادة أسهل من
الابتداء ، فلاحق لهم في طرق الشبهة إليهم والشك فيه ، كما قال : « وَهُوَ الَّذِي
يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » وقال : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ
قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ
خَلْقٍ عَلِيمٌ » وجاء في الحديث القدسي : « يقول الله تعالى يؤذيني ابن آدم يقول
لن يعيدني كما بدأني ، وليس أول الخلق بأهون عليّ من إعادته » .

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعَلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ
مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (١٦) إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ
قَعِيدٌ (١٧) مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (١٨) وَجَاءَتْ سَكْرَةُ
الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (١٩) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ
الْوَعِيدِ (٢٠) وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ (٢١) لَقَدْ كُنْتَ
فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (٢٢) .

شرح المفردات

الوسوسة : الصوت الخفي ومنه وسواس الخلق ؛ والراد بها هنا حديث النفس
وما يخطر بالبال من شتى الشئون ، وحبل الوريد : عرق كبير في العنق ، وللإنسان
وريدان مكتنفان بصفحتي العنق في مقدمهما متصلان بالتوتين يردان من الرأس إليه ،
وقعيد : بمعنى مقاعد كالجليس بمعنى المجالس ، والرقيب : ملك يرقب قوله ويكتبه ،
فإن كان خيرا فهو صاحب اليمين ، وإن كان شرا فهو صاحب الشمال ، عتيد : أى
مهيأ لكتابة ما يؤمر به من الخير والشر ، سكرة الموت : شدته ، بالحق : أى بحقيقة

الحال ، تمجيد : أى تميل وتعدل ، يوم الوعيد : أى يوم إنجاز الوعيد ، السائق والشهيد : ملكان أحدهما يسوق النفس إلى أمر الله ، والآخر : يشهد عليها بعملها ، والغطاء : الحجاب المنطى لأمور المعاد ، وهو الغفلة والانهمك فى اللذات وقصر النظر عليها ، حديد : أى نافذ ، لزوال المانع للإبصار .

المعنى الجملى

بعد أن استدل على إمكان البعث بقوله : أَفَعَيِّنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ — أردف ذلك بدليل آخر على إمكانه وهو علمه بما فى صدورهم وعدم خفاء شئ من أمرهم عليه ، فإن من كان كذلك لا يبعد أن يعيدهم كرة أخرى ، ثم أخبر بأنهم سيعلمون بعد الموت أن ماجاء به الدين حق لاشك فيه ، وأنه يوم القيامة تأتى كل نفس ومعها ملكان أحدهما سائق لها إلى المحشر والثانى شهيد عليها ، وأن الخزنة سيقولون لأهل النار : لقد كنتم فى غفلة عن حلول هذا اليوم الذى توفى كل نفس جزاء ما عملت ، والآن أزلنا عنكم هذه الغفلة فأبصرتم عاقبة أمركم . .

الإيضاح

(واقعد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه) أى إنه تعالى قادر على بعث الإنسان ، لأنه خالقه وعالم بجميع أموره حتى إنه ليعلم ما توسوس به نفسه من الخير والشر ولا عقاب على حديث النفس ، وقد ثبت فى الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن الله تجاوز لأمتى ما حدثت به أنفسها ما لم تقل أو تفعل » . (ونحن أقرب إليه من حبل الوريد) أى ونحن أعلم به وبمخفيات أحواله لا يخفى علينا شئ من أمره ، من علمكم بحبل الوريد ، لأن العرق تجببه أجزاء من اللحم ، وعلم الله لا يججب عنه شئ .

أخرج ابن مردويه عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « نزل الله من ابن آدم أربع منازل ، هو أقرب إليه من حبل الوريد ، وهو يحول بين المرء وقلبه ، وهو آخذ بناصية كل دابة ، وهو معهم أينما كانوا » .

قال القشيري في هذه الآية : هيبة وفرع وخوف لقوم ، وروح وأنس وسكون قلب لقوم .

ثم ذكر سبحانه أنه مع علمه به وكل به ملكين يكتبان ويحفظان عليه عمله إلزاما للحجة فقال :

(إذ يتلقى المتلقيان) أى نحن أعلم بحاله من كل قريب حين يتلقن الحفيظان ما يلفظ به ، مع أننا أغنياء عن استحفاظ الملكين لشدة قربنا منه .

(عن اليمين وعن الشمال قعيد) أى عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد أى مقاعد ومحاسن له يترصد ما يقول ويعمل ، فالذى عن اليمين يكتب الحسنات ، والذى عن الشمال يكتب السيئات .

قال الحسن وقتادة : المتلقيان ملكان يتلقيان عمالك : أحدهما عن يمينك ويكتب حسناتك ، والآخر عن شمالك يكتب سيئاتك .

ثم ذكر عملهما واستعدادهما لأدائه فقال :

(ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) أى لا يلفظ بكلمة من فيه إلا لديه ملك حاضر معه مراقب لأعماله ، يكتب ما فيه ثوابه أو عقابه .

قال الحسن البصرى وتلا هذه الآية (عَنِ الِئِمِّينِ وَعَنِ الشَّمَالِ قَعِيدٌ)
يا بن آدم بسطت لك صحيفة ، ووكل به ملكان كريمان ، أحدهما عن يمينك ،
والآخر عن شمالك ، فأما الذى عن يمينك فيحفظ حسناتك ، وأما الذى عن يسارك
فيحفظ سيئاتك ، فأعمل ما شئت ، أقلل أو أكثر ، حتى إذا مت طويت صحيفتك
وجعلت فى عنقك مملك فى قبرك حتى تخرج يوم القيامة ، فعند ذلك يقول تعالى :

« وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا . اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا » ثم قال : عدل والله فيك من جعلك حسيب نفسك .

وروى أبو أسامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرة ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر » .

والحكمة في هذا أن الله لم يخلق الناس لتعذيبهم ، بل خلقهم لتربيتهم وتهذيبهم فكل ألم فهو لرقى النفس ، والعالم المادى من طبيعه أن يكون نفعه أكثر من ضره ، والله تعالى خلقنا لغاية شريفة لنا ، والحسنات هى الأصل والسيئات عارضة ؛ كما أن المنافع فى الطبيعة هى الأصل والمضارّ عارضة ، فالنار خلقت لنفعه ، والماء لنفعه ، والهواء لنفعه ، فإذا أحرقتوب الناسك ، أو أغرق رب صبية لاعائل لهم ، فهذا عارض ، والأصل فى ذلك المنافع ، وهكذا خلق نوع الإنسان للخير ، والشر عارض ، ولفعل الحسنات ، والسيئات عارضة .

وبعد أن ذكر استبعادهم البعث للجزاء ، وأزاح ذلك بتحقيق قدرته وعلمه أعلمهم بأنهم يلاقون صدق ذلك حين الموت وحين قيام الساعة فقال :

(وجاءت سكرة الموت بالحق) أى وكشفت لك سكرة الموت عن اليقين الذى كنت تتمترى فيه ، وأن البعث لا شك فيه .

(ذلك ما كنت منه تهميد) أى ذلك الحق الذى كنت تفر منه قد جاءك ، فلا تهميد ولا مناص ، ولا فكاك ولا خلاص .

ولما ثقل أبو بكر جاءت عائشة رضى الله عنها فتمثلت بقول حاتم :

لعمرك ما يعنى الثراء عن الفتى إذا حشرجت يوما وضاق بها الصدر

فكشف رضى الله عنه عن وجهه وقال : ليس كذلك ، ولكن قولى :
« وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ » .

وفى الصحيح « أن النبي صلى الله عليه وسلم لما تعشاه الموت جعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : سبحان الله ، إن للموت لسكرات » .

(ونفتح فى الصور ذلك يوم الوعيد) أى ونفتح فى الصور نفخة البعث ، وذلك الزمان العظيم الأحوال هو اليوم الذى أوعده الله الكفار أن يعذبهم فيه .

وفى الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « كيف أنعم وصاحب القرن قد التعم القرن وحتى جهنمه وانتظر أن يؤذن له ؟ قالوا يارسول الله ماذا تقول ؟ قال : قولوا : حسبنا الله ونعم الوكيل » .

(وجاءت كل نفس معها سائق وشهيد) أى وجاءت فى هذا اليوم كل نفس ربها ومعها سائق يسوقها إلى الله ، وشهيد يشهد عليها بما عملت فى الدنيا من خير أو شر .

(لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد)
أى لقد كنت أيها الإنسان فى غفلة من هذا الذى عاينت من الأحوال والشذائد ، فجلىنا ذلك لك ، وأظهرناه لعينيك حتى رأيت به عاينته ، فزال عنك الغفلة وقد جعل سبحانه الغفلة غطاء غطى به الجسد كله ، أو غشاوة غشى بها عينيه فلا يبصر شيئاً ، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت عنه الغفلة وغطاؤها ، فأبصر مالم يكن يبصره من الحق .

وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَىٰ عَيْنَيْكَ (٢٣) أَتَقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ
عَنِيدٍ (٢٤) مَتَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ (٢٥) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ
فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ (٢٦) قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْعَمْتَهُ وَلَكِنْ كَانَ

فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٢٧) قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ
بِالْوَعِيدِ (٢٨) مَا يُبَدِّلُ الْقَوْلَ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٢٩) يَوْمَ تَقُولُ
لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (٣٠)

شرح المفردات

القرين : هو الملك الموكل بالمرء ، عتيد : أى معدّ مُحضّر ، عنيد : أى مبالغ
في العناد وترك الانقياد للحق ، مناع للخير: أى كثير المنع للمال في الحقوق المفروضة
عليه، معتد : أى متجاوز للحق ظالم ، مريب: أى شكّ في الله وفي دينه ، القرين هنا :
الشیطان المقيض له ، بعيد : أى من الحق ، لا تختصموا لى : أى لا يجادل بعضكم
بعضاً عندى ، بالوعيد : أى على الطغيان في دار الدنيا في كتبى وعلى السنة رسلى ،
مايبدل القول لى : أى لا يقع فيه الخلف والتغيير فلا تطمعوا أن أبدل وعيدى ،
مزید : زيادة .

الإيضاح

(وقال قرينه هذا مالى عتيد) أى وقال الملك الموكل به : هذا الذى وكلتني به
من بنى آدم قد أحضرته وأحضرت ديوان أعماله .

(ألقيا في جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . الذى جعل مع الله
إلهاً آخر) أى قال تعالى للسائق والشهيد : ألقيا في جهنم كل من كفر بالله وكذب
بالحق وعارضه بالباطل ، ومنع الحقوق المفروضة عليه ، واعتدى على الناس بلسانه
بالبداء والفحش ، وييده بالسطوة والبطش ظلماً ، وشك في وحدانية الله وقدرته على
ما يشاء ، وأشرك به فعبده معه معبوداً سواه من خلقه .

ثم كرر ما سلف توكيذاً فقال :

(فألقياه في العذاب الشديد) أى فألقياه في النار ذات العذاب الشديد .
 (قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد) أى فقال الكافر
 معتذرا : رب إن قرينى من الشياطين أطفانى ، فقال الشيطان المقيض له : ربنا
 ما أطغيته ، ولكن كان طبعه وديدنه الضلال والبعث عن الحق ، فسار على النهج
 الذى يشاكل أخلاقه .

وخلاصة ذلك — إنه في ضلال بعيد المدى لا يرجع عنه إلى الحق .
 ونحو الآية قوله : « وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ
 فَاسْتَجَبْتُمْ لِي » .

(قال لا تختصموا لى وقد قدمت إليكم بالوعيد) أى قال عز اسمه للإنسى
 وقرينه من الجن حين اختصما ، فقال الإنسى : رب إن هذا أضلنى عن الذكر بعد
 إذ جاءنى ، وقال الشيطان : ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد عن منهج
 الحق — لا تختصموا عندى ، فقد أعذرت إليكم على السنة الرسل وأنزلت الكتب ،
 وقامت عليكم الحجج .

والخلاصة — إنهم اعتذروا بغير ما يصلح أن يكون عذرا ، فأبطل الله حججهم
 ورد عليهم قلوبهم .

(ما يبذل القول لى) أى لا يغير قضائى الذى قضيته ، ووعيدى الذى أوعدته
 بتخليد الكفار فى النار ومجازاة العصاة على قدر ما يستحقون .
 (وما أنا بظلام للعبيد) فلا أعذب أحدا بغير جرم اجترمه ، ولا ذنب جناه ،
 ولا أعذب أحدا مكان أحد .

ثم ذكر مكان حلول الوعيد فقال :

(يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد) أى وأنذر قومك يوم
 نقول لجهنم هل امتلأت بما ألقى إليك فوجا بعد فوج ؟ فتقول لامزيد بعد ذلك .

وفى هذا بيان لأنها مع اتساعها وتباعد أقطارها ، يطرح فيها من الجنة والناس جماعات بعد جماعات حتى تمتلئ ولا تقبل الزيادة .

وهذا السؤال والجواب جيء بهما للتتمثيل وتصوير المعنى بإبرازه فى لباس المحسوس ليتضح أمره .

روى عن ابن عباس أنه قال : سبقت كلته : لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين ، فلما سبق أعداء الله إليها صارت لا يلقى فيها فوج إلا ذهب فيها ولا يملؤها شئ ، فتقول : ألسنت قد أقسمت لتملأنى ؟ فيضع قدمه عليها فيقول : هل امتلأت ؟ فتقول : قَطَّ قَطَّ (كفى كفى) قد امتلأت وليس من مزيد .

وَأَزَلَفْتِ الْجَنَّةَ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (٣١) هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ
أَوَّابٍ حَفِيظٍ (٣٢) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (٣٣)
ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (٣٤) لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا
مَزِيدٌ (٣٥) .

شرح المفردات

أزلفت : أى أدنيت وقررت ، غير بعيد : أى فى مكان غير بعيد منهم بل هو برأى منهم ومسمع ، هذا ما توعدون : أى هذا هو الثواب الذى وعدتم به على أسنة الرسل ، أوَّاب : أى رجاع عن المعصية إلى الطاعة ، حفيظ : أى حافظ لحدود الله وشرائعه ، خشى الرحمن بالغيب : أى خاف عقاب ربه وهو غائب عن الأعين حين لا يراه أحد ، منيب : أى مخلص مقبل على طاعة الله ، بسلام : أى سالمين من العذاب وزوال النعم ، الخلود : أى فى الجنة إذ لاموت فيها ، مزيد : أى مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الحوار بين الكافر وقرينه من الشياطين ، واعتذار الكافر ورد القرين عليه ، وأن الله سبحانه نهاهم عن الاختصاص لديه ، لأنه لافائدة فيه بعد أن أوعدهم على أسنة رسله — أردف هذا بذكر حال المتقين ، فذكر أن الجنة تكون قريبة منهم بحيث يرونها رأى العين ، فتطمئن إليها نفوسهم ، وتلج لمرآها صدورهم ، ويقال لهم هذا هو الثواب الذى وعدتم به على أسنة الأنبياء والرسل ، وهو دائم لانفاد له ولا حصر ، فكل ما يريدون من لذة ونعيم فهو حاضر ، ولهم فوق هذا رضوان من ربهم « وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ » .

الإيضاح

(وأزلت الجنة غير بعيد) أى وأدنت الجنة للذين اتقوا ربهم واجتنبوا معاصيه ، بحيث تكون برأى العين منهم ، إكراماً لهم ، واطمئناناً لنفوسهم ، فيرون ما أعد لهم من نعيم وحبور ، ولذة وسرور ، لانفاد له ولا فناء .

(هذا ما توعدون) أى وتقول لهم الملائكة : هذا هو النعيم الذى وعدكم به ربكم على أسنة رسله ، وجاءت به كتبه ، ثم بين المستحق لهذا النعيم فقال :

(لكل أواب حفيظ . من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) أى هذا الثواب للمتقين الذين يرجعون من معصية الله إلى طاعته تائبين من ذنوبهم ويلقون الله بقلوب منيبة إليه ، خاضعة له .

(ادخلوها بسلام) أى وتقول لهم الملائكة تكمية لهم : ادخلوا الجنة سالمين من العذاب والهجوم والأكدار ، فلا خوف عليكم ولا أتم تحزنون .

ثم يبشرون ويقال لهم :

(ذلك يوم الخلود) أى فاطمئنونوا وقرؤا علينا ، فهذا يوم الخلود الذى لاموت

بمده ، ولا ظعن ولا رحيل .

ثم زاد فى البشرى فقال :

(لهم ما يشاءون فيها ولدينا مزيد) أى لهم إجابة لسؤلهم كل ما يشتهون ،
ثم زيدهم فوق ما سألوا مما لم تره أعينهم ولم يدرك بحلدهم .
ونحو الآية قوله : « الَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ » .

وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ
هَلْ مِنْ مَّحِيصٍ (٣٦) إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ
وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧) وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ
أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ (٣٨) فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ
قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (٣٩) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَارَ
السُّجُودِ (٤٠) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِي الْمُنَادِي مِنْ مَّكَانٍ قَرِيبٍ (٤١) يَوْمَ
يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (٤٢) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ
وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (٤٣) يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا
يَسِيرٌ (٤٤) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكَرْ بِالْقُرْآنِ
مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (٤٥)

شرح المفردات

القرن : الجيل من الناس ، بطشاً : أى قوة ، فنقَّبوا فى البلاد : أى ساروا فيها
يبتغون الأرزاق والمكاسب ، ويقال لمن طوَّف فى الأرض نقَّب فيها .
قال امرؤ القيس :

فقد نقَّبْتُ فى الآفاق حتى رَضيت من الغنيمة بالإياب

محيص : أى مهرب ، لذكرى : أى لعبرة ، قلب : أى لب يعنى به ، أو ألقى
السمع : أى أصغى إلى ما يتلى عليه من الوحي ، شهيد : أى حاضر فهو من الشهود
بمعنى الحضور ، والمراد به الفطن ، إذ غيره كأنه غائب ، لغوب : أى تعب ، سبح
بحمد ربك : أى نزهه عن كل نقص ، أدبار السجود : أى أعقاب الصلوات ، واحدها
دبر (بضم فسكون وبضمتين) واستمع : أى لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة ،
يوم ينادى المنادى : أى يخرجون من القبور يوم ينادى المنادى ، من مكان قريب :
أى بحيث لا يخفى الصوت على أحد ، والمنادى هو جبريل عليه السلام على ما ورد
في الآثار ، يقول : أيتها العظام البالية ، والأوصال المتقطعة ، واللحوم المتمزقة ،
والشعور المتفرقة ، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء ، والصيحة : النفخة الثانية .
بالحق : أى بالبعث والجزاء ، يوم الخروج : أى من القبور ، تشقق : أى تتصدع ،
بجبار : أى بمسيطر ومسلط ، إنما أنت داع ومنذر .

المعنى الجملى

بعد أن أنذرم بما بين أيديهم من اليوم العظيم والعذاب الأليم — أنذرم
بما يجعل لهم في الدنيا من ضروب العذاب ، سنة الله فيمن تقدمهم من المكذبين
قبلهم ممن ساروا في البلاد طولا وعرضا وكانوا ذوى قوة وأيد ، ولم يعن ذلك عنهم
من الله شيئا ، ووسط بين ذلك ذكر المتقين وما يلاقونه من النعيم ، ليكون أمرهم
بين الخوف والطمع ، ومن ثم ذكر حال الكفور المعاند ، وحال الشكور العابد ،
ثم ذكر أن هذا عظة وذكرى لكل ذى لبّ واعٍ سميع لما يلقى إليه ، ثم أعاد الدليل
مرة أخرى على إمكان البعث ، فأبان أنه قد خلق السموات والأرض في ستة أطوار
مختلفة وما أصابه تعب ولا لغوب كما قال : « أَفَعَيِّنَا بِأَخْلُقِ الْأَوَّلِ ؟ » ثم أمره
بالصبر على ما يقولون ، وتنزيه الله عن كل نقص آناء الليل وأطراف النهار ، فهاهو ذا
اقترب يوم البعث والنشور ، وسمع صوت الداعي لذلك بعد النفخ في الصور ، وتشققت

الأرض سراعاً وخرج الناس من القبور ، وما ذلك بالصعب على رب العالمين ، خالق السموات والأرضين ، وإنا لنعلم مايقول المشركون فى البعث والنشور ، فدعهم فى غيرهم يعمهون ، فما أنت عليهم بجبار تلزمهم الإيمان بهذا اليوم ، وما فيه من هول ، إن أنت إلا نذير ، ولا يؤمن بك إلا من يخاف عقابى ، وشديد وعيدى ، ولا تنفع العظة إلا ذوى الأحلام الراجحة ، والقلوب الواعية .

الإيضاح

(وكم أهلكتنا قبائهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا فى البلاد هل من محيى ؟) أى وكثير من الأمم التى قبلك أهلكتناهم وكانوا أشد منهم بطشاً وأكثر قوة كعاد وعمود وتبع ، فتقلبوا فى البلاد وسلوكوا كل طريق ابتغاء للرزق ولم يجدوا لهم من أمر الله مهرباً ولا ملجأ حين حمّ القضاء ، وهكذا حالكم ، فحذار أن يصيبكم مثل ما أصابهم من العذاب العاجل فى الدنيا ، والآجل يوم القيامة .

وبعد أن ذكر فى هذه السورة وما قبلها بارع الحكم ونفائس المعارف الإلهية جملة وتفصيلاً ، فمن أدب للأمة مع نبيها ، إلى أدب للأمة بعضها مع بعض ، إلى حفظ للسلام بين الناس والصلح بينهم ، وصيانة للسان من الهزؤ والسخرية والهمز والذم ، ثم إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض ، وبذا يحل التواصل محل التقاطع ، ويتعلم الجهال ، ويجتمع الشمل ، ويخيم الأمن فى ربوع البلاد ، أبان أن تلك الزواجر لا ينتفع بها إلا ذوى الألباب فقال :

(إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) أى إن فيما تقدم لتذكرة وعبرة لمن كان له قلب واع يتدبر به الحقائق ، ويعى مايقال له . ثم أعقب ذلك بذكر ما هو كالدليل على ما سلف فقال :

(ولقد خلقنا السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام وما مسنا من لغوب) أى قسمنا بربك إنا خلقنا السموات والأرض وملأناها بالمعجائب فى ستة أطوار مختلفة

وما مسنا تعب ولا إعياء ، ولا تزال عجائبنا تترى كل يوم ، فانظروا إليها وتأملوا في محاسنها فهي لأخصى ، ولا يبلغها الاستقصا ، وكذبوا اليهود الذين قالوا : إن الله خلق السموات والأرض في ستة أيام أو لها الأحد وآخرها الجمعة واستراح يوم السبت واستلقى على العرش ، فنحن لا يمسننا الغوب ولا إعياء .

ونحو الآية قوله : « أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْزَمْ مَخْلَقَتَيْنِ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُخَيِّمَ الْمَوْتَى ، بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

(فاصبر على ما يقولون) أى فاصبر على ما يقوله المشركون فى شأن البعث من الأباطيل التى لامستند لها إلا الاستبعاد ، فإن من خلق العالم فى تلك المدة اليسيرة بلا إعياء — قادر على بعثهم وجزائهم على ما قدموا من الحسنات والسيئات .

(وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ، ومن الليل فسبحه وأدبار السجود) أى وتره ربك عن العجز عن كل ممكن كالبعث ونحوه ، حامداً له أنعمه عليك ، وقت الفجر ووقت العصر وبعض الليل ، وفى أعقاب الصلوات .

وقال ابن عباس : الصلاة قبل طلوع الشمس صلاة الفجر ، وقبل الغروب الظهر والعصر ، ومن الليل العشاءان ، وأدبار السجود النوافل بعد الفرائض .

روى البخارى عن ابن عباس قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسبح فى أدبار الصلوات كلها ، يعنى قوله : « وَأُدْبَارَ السُّجُودِ » وفى حديث مسلم تحديد النسبىح بثلاث وثلاثين ، والتحميد بثلاث وثلاثين ، والتكبير بثلاث وثلاثين ، وتقام المائة لإله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت وهو على كل شىء قدير ، ذُبر كل صلاة .

(واستمع) أيها الرسول لما أخبرك به من أهوال يوم القيامة ، وفى إبهام أمره ، تعظيم لشأنه .

ثم بين ذلك الخبر وزمانه بقوله :

(يوم ينادى المنادى من مكان قريب) أى يوم ينادى المنادى من موضع قريب

فيصل نداؤه إلى كل الخلائق على السوية ، ويقول : هلموا إلى الحساب ، فيخرجون من قبورهم ويقبلون كأنهم جراد منتشر .

ثم زاد الأمر تفصيلا فقال :

(يوم يسمعون الصيحة بالحق) أى يوم يسمعون النفخة الثانية منذرة بالبعث والجزاء على ما قدموا من الأعمال .

ثم ذكر ما يقال لهم حينئذ فقال :

(ذلك يوم الخروج) أى هذا اليوم هو يوم الخروج من القبور .

ثم لخص ما تقدم من أول السورة إلى هنا فقال :

(إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير) أى إنا نحن نحيي في الدنيا وتميت فيها حين انقضاء الآجال ، وإلينا الرجوع للحساب والجزاء في الآخرة .

(يوم تشقق الأرض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير) أى إلينا المصير في ذلك اليوم الذى تتصدع فيه الأرض فتخرج الموتى من صدوعها مسرعة ، وذلك جمع بين علينا لاعسر فيه ولا مشقة .

ثم سلى رسوله وهدد المشركين بقوله :

(نحن أعلم بما يقولون) أى نحن أعلم بما يقولون من فريتهم على ربهم وتكذيبهم بآياته ، وإنكارهم قدرته على البعث بعد الموت .

(وما أنت عليهم بجبار) أى وما أنت بمسلط عليهم تقسرم على الإيمان وتسيرم على ما تهوى وتريد ، إنما أنت نذير ، وما عليك إلا التبليغ وعلينا الحساب .

ثم أكد أنه مذكر لا مسيطر وأن التذكير لا ينفع إلا من خشى ربه فقال :

(فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) أى فذكر أيها الرسول بهذا القرآن الذى

أنزلته عليك من يخاف وعيدى الذى أوعدته من عصائى وخالف أمرى ، أى بلغ رسالة ربك ، وما يتذكر بها إلا من يخاف وعيد الله وشديد عذابه .

ونحو الآية قوله : « فَذَكَّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكَّرٌ . نَسْتَ عَلَيْهِمْ مُسَيِّطِرٌ »
 وقوله : « لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ . وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ » .
 وكان قتادة يقول : اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك ، ويرجو موعودك ،
 يا برّ يا رحيم .

موجز لما تضمنته السورة الكريمة من الموضوعات

- (١) إنكار المشركين للنبوة والبعث .
- (٢) الحث على النظر في السماء وزينتها وبهجة بنائها ، وفي الأرض وجبالها
 الشاخات ، وزروعها النضرات ، وأمطارها الثجاجات .
- (٣) العبرة بالدول الممالك كعاد وثمود وأصحاب الأيكة وقوم تبع وما استحقوا
 من وعيد وعذاب .
- (٤) تقرّيع الإنسان على أعماله ، وأنه مسئول عن دخائل نفسه ، في مجلس
 أنه ، وعند إخوته ، وفي خلوته ، وأنه محوط بالكرام الكاتبين ،
 يحصون أعماله ، ويرقبون أحواله حتى إذا جاءت سكرته ، وحانت منيته ،
 حوسب على كل قول وكل عمل ، وشهدت عليه الشهود وكُشفت له الحجب
- (٥) إنه ما خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا .
- (٦) إن القرآن عظة وذكري لمن كان له قلب واعٍ يستمع ما يلقي إليه .
- (٧) تسلية رسوله على ما يقول المشركون من إنكار البعث وتهديدهم على ذلك .
- (٨) أمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالتسبيح آناء الليل وأطراف النهار .
- (٩) أمر الرسول بالتذكير بالقرآن من يخاف وعيد الله ويخشى عقابه .

سورة الذاريات

هي مكية وعدة آياتها ستون ، نزلت بعد الأحقاف ، ومناسبتها لما قبلها :

- (١) إنه قد ذكر في السورة السابقة البعث والجزاء والجنة والنار ، وافتتح هذه بالقسم بأن ما وعدوا من ذلك صدق وأن الجزاء واقع .
 (٢) إنه ذكر هناك إهلاك كثير من القرون على وجه الإجمال ، وهنا ذكر ذلك على وجه التفصيل .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

- وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا (١) فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا (٢) فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا (٣)
 فَالْمُتَسَّمَاتِ أَمْرًا (٤) إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ (٥) وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ (٦)
 وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوكِ (٧) إِنَّكُمْ لَنِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (٨) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ
 أُفِكَ (٩) قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي نَعْمَةٍ سَاهُونَ (١١) يَسْأَلُونَ
 أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ
 هَذَا الَّذِي كُنتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) .

شرح المفردات

الذاريات : الرياح تذر التراب وغيره ، أى تفرقه ، والوقر : حمل البعير وجمعه أوقار : أى أقال ، والحاملات وقرًا : هى الرياح الحاملات للسحاب المشبع ببخار الماء ، واليسر : السهولة ، والجاريات يسرًا : هى الرياح الجارية فى مهابها بسهولة ، والمتسلمات أمرًا : هى الرياح التى تقسم الأمطار بتصريف السحاب ، وما توعدون : هو البعث

والحشر للحساب والجزاء ، والدين : الجزاء ، وواقع : أى حاصل ، والحبك : الطرق واحدها حبيكة ، مختلف : أى متناقض مضطرب فى شأن الله ، فبينما تقولون إنه خالق السموات تقولون بصحة عبادة الأوثان معه ، وفى شأن الرسول فتارة تقولون إنه مجنون ، وتارة تقولون إنه ساحر ، وفى شأن الحشر فتارة تقولون لاحشر ولا بعث ، وأخرى تقولون : الأصنام شفعاءونا عند الله يوم القيامة ، يؤفك عنه من أفك : أى يصرف عن القول المختلف : أى بسببه من صرف عن الإيمان ، والخراسون : أى الكذابون من أصحاب القول المختلف ، فى غمرة : أى فى جهل يشملهم ويغمرهم شمول الماء الفامر ، ساهون : أى غافلون عما أمروا به ، أيا ن يوم الدين : أى متى يوم الجزاء : أى متى حصوله ، يفتنون : أى يحرقون ، وأصل الفتن : إذابة الجوهر ليعرف غشه فاستعمل فى الإحراق والتعذيب ، ففتنكم : أى عذابكم الممد لكم .

المعنى الجملى

هاهنا أمور يحمل بك أن تفهمها :

(١) بعد أن بين الحشر بدلائله وقال : ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ، ثم أصروا على ذلك غاية الإصرار لم يبق إلا اليمين فقال : « وَالذَّارِيَاتِ ذَرْوًا — إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٌ » .

(٢) إن الإيمان التى حلف بها الله تعالى فى كتابه كلها دلائل على قدرته أخرجها فى صورة الإيمان ، كما يقول القائل للنعم عليه : وحق نعمك الكثيرة إنى لا أزال أشكرك ، فيذكر النعم وهى سبب لدوام الشكر ويسلك بها مسلك القسم ، وجاءت الآية هكذا ، مصدره بالقسم ، لأن المتكلم إذا بدأ كلامه به علم السامع أن هاهنا كلاماً عظيماً يجب أن يرضى إليه ، فإذا وجهه همه لسماعه خرج له الدليل والبرهان المتين فى صورة اليمين .

(٣) في السور التي أقسم الله في ابتدائها بغير الحروف المقطعة كان القسم لإثبات أحد الأصول الثلاثة : الوجدانية والرسالة والحشر وهي التي يتم بها الإيمان ، فأقسم لإثبات الوجدانية في سورة الصافات فقال : « إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ » وأقسم في سورتي النجم والضحي لإثبات الرسالة فقال في الأولى : « وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ » وقال في الثانية « وَالضُّحَىٰ وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ » وأقسم في سور كثيرة على إثبات البعث والجزاء .

(٤) في السورة التي أقسم فيها لإثبات الوجدانية أقسم بالساكنات فقال : « وَالصَّافَّاتِ صَفًّا » ، وفي السور التي أقسم فيها لإثبات الحشر أقسم بالمتحركات فقال : « وَالذَّارِيَاتِ ذُرْوًا - وَالْمُرْسَلَاتِ عُرْفًا - وَالنَّازِعَاتِ غُرُقًا - وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا » لأن الحشر فيه جمع وتفريق ، وهو بالحركة أليق .

(٥) كانت العرب تحترق عن الإيمان الكاذبة وتعتقد أنها تدع الديار بلاقع ، وقد جرى النبي صلى الله عليه وسلم على سننهم ، تخلف بكل شريف ولم يزد ذلك إلا رفعة وثباتا ، وكانوا يعلمون أنه لا يخلف إلا صادقا وإلا أصابه شؤم الإيمان ، وناله المكروه في بعض الأيام .

الإيضاح

(والذاريات ذروا ، فالحاملات وقرآ ، فالجاريات يسرا ، فالقسيمات أمرا . إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع) أقسم سبحانه بالرياح وذروها التراب ، وحملها السحاب ، وجريها في الهواء يسر ومسهولة ، وتقسيما الأمطار ، إن هذا البعث لخاص ، وإن هذا الجزاء لا بد منه في ذلك اليوم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين .

وهنا أقسم سبحانه بالرياح وأفعالها ، لما يشاهدون من آثارها ونفعها العظيم لهم فهي التي ترسل الأمطار مبشرات برحمته ، ومنها تسقى الأنعام والزرع وتنبت

البساتين والجنات وتجعل الأرض القَفْرَ مَرُوجاً ، وعليها يعتمدون في معاشهم ، فأثارها واضحة أمامهم ، ولا عجب أن تكون لها المنزلة العظمى في نفوسهم .

وأفعال الرياح تخالف ناموس الجاذبية ، فإن ما على الأرض منجذب إليها ، واقع عليها ، ولكن هذه الرياح تتصرف تصرفاً عجيباً تابعاً لسير الكواكب ، فبجريها وجرى الشمس تؤثر في أرضنا وهوائها بنظام محكم ، فما ذرت الرياح التراب ، ولا حملت السحاب ، ولا قسمت المطر على البلاد إلا بحركات فلكية منتظمة ، من أجل هذا جعل ذلك براهين على البعث والإعادة .

(والسما ذات الحبيك ، إنكم لفي قول مختلف ، يؤفك عنه من أفك) أى والسما ذات الجمال والبهاء ، والحسن والاستواء ، إنكم أيها المشركون المكذبون للرسول ، لاني قول مختلف مضطرب ، لا يلتئم ولا يجتمع ، ولا يروج إلا على من هو ضالّ في نفسه ، لأنه قول باطل يُصرف بسببه من صرف عن الإيمان برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به .

والخلاصة — قسما بالسما وزينتها وجمالها ، إن أمركم في شأن محمد وكتابه لعجب عجب ، فهو متناقض مضطرب ، فحيناً تقولون هو شاعر ، وحيناً آخر تقولون هو ساحر ، ومرة ثالثة تقولون هو مجنون ، وبيننا تقولون عن القرآن إنه سحر إذا بكم تقولون إنه شعر أو إنه كهانة .

(قتل الخراصون الذين هم في غمرة ساهون) أى قتل الكذابين من أصحاب القول المختلف الذين هم في جهل عميق وغفلة عظيمة عما أمروا به .

وهذا دعاء عليهم يراد به في عرف التخاطب لعنهم ، إذ من لعنه الله فهو بمنزلة الهالك المقتول ، وقد جاء في القاموس : قتل الإنسان مأً كفره : أى لعن ، وقتلهم الله ، أى لعنهم .

(يسألون أيان يوم الدين) أى يسألك المشركون استهزاء فيقولون : متى يوم الجزاء ، وقد كان لهم من أنفسهم لو تدبروا ما يدفهم إلى الاعتقاد بمجىء هذا

اليوم ، فإن أحداً منهم لا يترك عبده وأجراه في عمل دون أن يحاسبهم وينظر في أحوالهم ، ويحكم بينهم في أقوالهم وأفعالهم ، فكيف يترك أحكم الحاكمين عبدة الذين أبدع لهم هذا الكون وهياً لهم كل ما يحتاجون إليه - سدى ويوجد لهم غيباً . ثم أجاب عن هذا السؤال وذكر أنه يكون يوم القيامة فقال :
(يوم هم على النار يفتنون) أى يوم الجزاء هو يوم نعذب الكفار وتقول لهم الخزنة :

(ذوقوا فنتنكم هذا الذى كنتم به تستعجلون) أى ذوقوا هذا العذاب الذى كنتم تستعجلون وقوعه استهزاء وتظنون أنه غير كائن .

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) آخِذِينَ مَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ (١٦) كَانُوا قَلِيلًا مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَشْحَارِ هُمْ يَسْتَفْهِرُونَ (١٨) وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (١٩) وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٢١) وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ (٢٢) فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (٢٣)

تفسير المفردات

في جنات وعيون: أى في بساطين تجرى من تحتها الأنهار، محسنين: أى مجودين لأعمالهم ، والهجوع: النوم ليلاً؛ والهجمة النوم الخفيفة، والأشجار: واحدها سحر وهو السدس الأخير من الليل، حق: أى نصيب وأفر يوجبونه على أنفسهم تقرباً إلى ربهم وإشفاقاً على عباده، والسائل: هو المستجدي الطالب العطاء، والمحروم: هو المتعفف

الذي يحسبه الجاهل غنيا فيحزرمُ الصدقة من أكثر الناس ، آيات : أى دلائل على قدرته تعالى من وجود المعادن والنبات والحيوان ، والدحو في بعض المواضع والارتفاع في بعضها الآخر عن الماء ، واختلاف أجزائها في الكيفيات والخواص ، الموقنين : أى للموحدين الذين سلكوا الطريق الموصل إلى معرفة الله ، فهم نظارون بعيون باصرة ، وأفهام نافذة ، وما توعدون أى والذي توعدونه من خير أو شر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال المغترين الذين أنكروا يوم الدين ، وكذبوا بالبعث والنشور ، وأنكروا نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وعبدوا مع الله غيره من وثن أو صنم - أردف ذلك بذكر حال المتقين وما يتمتعون به من النعيم المقيم في جنات تجري من تحتها الأنهار جزاء إحسانهم في أعمالهم ، وقيامهم بالليل للصلاة ، والاستغفار بالأسحار ، وإفراقهم أموالهم للفقراء والمساكين ، ونظمهم في دلائل التوحيد التي في الآفاق والأنفس ، وتفكيرهم في ملكوت السموات والأرض مصدقين قوله تعالى : « سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ » .

ثم أقسم رب السماء والأرض إن ماتوعدون من البعث والجزاء حق لاشك فيه ، كما لاشك في تطقكم حين تنطقون .

الإيضاح

(إن المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم) أى إن الذين اتقوا الله وأطاعوه واجتنبوا معاصيه ، في بساتين وجنات تجري من تحتها الأنهار ، قريرة أعينهم بما آتاهم ربهم ، إذ فيه ما يرضيهم ويفنيهم ويفوق ما كانوا يؤملون .

ثم ذكر الثمن الذي دفعوه لنيل هذا الأجر العظيم فقال : (إنهم كانوا قبل ذلك محسنين) أى إنهم كانوا في دار الدنيا يفعلون صالح

الأعمال خشية من ربهم وطلباً لرضاه ، ومن ثم نالوا هذا الفوز العظيم ، والمكرمة التي فاقت ما كانوا يؤملون ويرجون .

ونحو الآية قوله : « كَلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » .
ثم فصل ما أحسنوا فيه فقال :

(كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون) أى كانوا ينامون القليل من الليل ويتهدون في معظمه ، قال ابن عباس : ما تأتى عليهم ليلة ينامون حتى يصبحوا إلا يصلون فيها شيئاً إما من أولها أو من وسطها ، وقال الحسن البصرى : كأبدوا قيام الليل ، فلا ينامون من الليل إلا أقله ، وربما نشطوا فجذوا إلى السحر . وعن أنس قال : كانوا يصلون بين المغرب والعشاء .

(وبالأسحار هم يستغفرون) أى فهم يحيون الليل متبهجين ، فإذا أسحروا أخذوا فى الاستغفار كأنهم أسلفوا فى ليلهم الجرائم .

ولما ذكر أنهم يقيمون الصلاة ثنى بوصفهم بأداء الزكاة والبر بالفقراء فقال :
(وفى أموالهم حق للسائل والمحروم) أى وجعلوا فى أموالهم جزءاً معيناً ميزوه وعزلوه للطالب المحتاج ، والتمتعف الذى لا يجد ما يغنيه ، ولا يسأل الناس ، ولا يفتنون إليه ليتصدقوا عليه .

أخرج ابن جرير وابن مردويه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ليس المسكين الذى تردّه التمرة والتمران والأكلة والأكلتان ، قيل فن المسكين ؟ » قال الذى ليس له ما يغنيه ، ولا يعلم مكانه فيتصدق عليه ، فذلك المحروم » .

وبعد أن ذكر أوصاف المتقين بين أنه قد لاحت لهم الأدلة الأرضية والسموية التى بها أختبوا إلى ربهم وأنابوا إليه فقال :
(وفى الأرض آيات للمؤمنين) أى وفى الأرض دلائل على وجود الخالق وعظيم

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن الحسن أنه قال فيها : بلغني أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « قاتل الله قوما أقسم لهم ربهم ثم لم يصدقوا » .
 عن الأصمعي قال : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابي على قعود فقال من الرجل ؟ قلت من بنى أصمعي ، قال من أين أقبلت ، قات من موضع يتلى فيه كلام الرحمن ، قال : اتل علي فتلوت والذاريات فلما بلغت : وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ قال حسبيك ، فقام إلى ناقته فنجرها ووزعها وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرها وولى ، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف فإذا أنا بمن يهتف بي بصوت رقيق فالتفت فإذا بالأعرابي قد نحل واصفر فسلم علي واستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية صاح وقال لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، ثم قال : وهل غير هذا ؟ فقرأت فَوَرَبُّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ الْقَضَاحِ . فصاح وقال : يا سبحان الله ، من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف ، لم يصدقوه حتى حلف (قالها ثلاثا) وخرجت معها نفسه .
 وإنما قصصت عليك هذا القصص لما فيه من أدب بارع وظرف وحسن فهم من ذلك الأعرابي لكتاب الله ، ولك بعد ذلك أن تصدقه أو تشكك فيه ، فكم للأصمعي من مثله ، فهو الأديب البارع ، والراوية الحافظ ، فلا يمجزه أن يصنعه ويصنع أمثاله .

هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ صَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكَرَّمِينَ (٢٤) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ
 فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُّتَّكِرُونَ (٢٥) فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعَجَلٍ
 سَمِينٍ (٢٦) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْتُونَ كُلُونَ (٢٧) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا
 لَا نَخَفُ وَبَشَّرُوهُ بِإِلَافٍ عَالِيَةٍ (٢٨) فَأَقْبَلَتْ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ
 وَجْهَهَا وَقَالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (٢٩) قَالُوا كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ
 الْعَلِيمُ (٣٠)

شرح المفردات

الضيف : لفظ يستعمل للواحد والكثير ، المكرمين : أى عند إبراهيم إذ خدمهم هو وزوجه ومجلى لهم القرى وأجلسهم فى أكرم موضع ، قوم منكرون : أى قوم لاعهد لنا بكم من قبل ، وقد قال ذلك إبراهيم عليه السلام للتعرف بهم كما تقول لمن لقيته وسلم عليك : أنا لا أعرفك ، تريد عرّف لى نفسك وصفها ، فراغ إلى أهله : أى ذهب إليهم على خفية من ضيفه ، سمين : أى تمتلئ بالشحم واللحم ، فقر به إليهم : أى وضعه لديهم ، فأوجس منهم خيفة : أى أضمر فى نفسه الخوف منهم ، امرأته هى سارة لما سمعت بشارتهم له ، صرّة : أى صيحة ، فصكت وجهها : أى ضربت بيدها على جبهتها وقالت يا ويلتنا ، عجوز عقيم : أى أنا كبيرة السن لا ألد .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر إنكار قومه للبعث والنشور حتى أقسم لهم ربهم بعزته أنه كأن لا محالة — سلى رسوله فأبان له أنه ليس ببدع فى الرسل ، وأن قومه ليسوا ببدع فى الأمم ، وأنهم إن تمادوا فى غيهم وأصرروا على كفرهم ولم يُقلعوا عما هم فيه ، فسيجل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من الأمم الخالية .

وذكر إبراهيم من بين الأنبياء لكونه شيخ المرسلين ، وكون النبي صلى الله عليه وسلم على سنته كما قال تعالى : « مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ » ولأن العرب كانت تجله وتحترمه وتدعى أنها على دينه .

وأنى بالقصص بأسلوب الاستفهام تفخياً لشأن الحديث كما تقول لمخاطبك هل بلغك كذا وكذا ، وأنت تعلم أنه لم يبلغه ، توجيهها لأنظاره حتى يصفى إليه ويهتم بأمره ، ولو جاء على صورة الخبر لم يكن له من الروعة والجلال مثل ما كان وهو بهذه الصورة ، وتنبهها إلى أن الرسول لم يعلم به إلا من طريق الوحي .

الإيضاح

(هل أذاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين . إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام ؟) أى هل عندك نبأ بما حدث بين إبراهيم وضيوفه من الملائكة الذين وفدوا عليه وهم ذاهبون فى طريقهم إلى قوم لوط ، فسأموا عليه فرد عليهم التحية بأحسن منها .

ثم أراد أن يتعرف بهم فقال :

(قوم منكرون) أى إنكم قوم لآعهد لنا بكم من قبل فعرفونى أنفسكم -

من أتم ؟

واستظهر بعض العلماء أن هذه مقالة أسرها فى نفسه أو لمن كان معه من أتباعه وجلسائه من غير أن يشعرهم بذلك ، لأن فى خطاب الضيف بنحو ذلك إجحاشا له ، إلى أنه لو كان أراد ذلك لكشفوا له أحوالهم ، ولم يتصد لمقدمات الضيافة ، ثم ذكر أنه أسرع فى قرى ضيوفه فقال :

(فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقربه إليهم) أى فذهب خفية مسترعا وقدم

لضيوفه عجلا سمينا أنضجه شيئا ، كما جاء فى سورة هود « فَاَلْبَيْتَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ » أى مشوى على الرصف .

(قال ألا تأكلون ؟) أى قال مستحثا لهم على الأكل : ألا تأكلون ؟ وفى

هذا تल्प منه فى العبارة وعرض حسن ، وقد انتظم كلامه وعمله آداب الضيافة ،

إذ جاء بطعام من حيث لا يشعرون ، وأتى بأفضل ماله وهو عجل فتى مشوى ووضعه بين أيديهم ولم يضعه بعيداً منهم حتى يذهبوا إليه ، وتلطف في العرض فقال :
ألا تأكلون ؟

(فأوجس منهم خيفة) أى فأعرضوا عن طعامه ولم يأكلوا فأضمر في نفسه الخوف منهم ، ظننا منه أن امتناعهم إنما كان لشمر يريدونه ، فإن أكل الضيف أمانة ودليل على سروره وانشراح صدره ، وللطعام حرمة ، وفي الإعراض عنه وحشة موجبة لسوء الظن ، وقد جاء في سورة هود : « فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَاتِصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً »

ثم ذكر أنهم طمأنوه حينئذ فقال :

(قالوا لا تخف) منا إنا رسل ربك ، وجاء في الآية الأخرى : « قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ لُوطٍ »

(وبشروه بسلام عليم) أى فبشروه بإسحاق بن سارة كما جاء في سورة هود : « فَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ » وجاءت البشارة بذكر لأنه أسر للنفس ، وأقر للعين ، ووصفه بالعلم لأنه الصفة التي يمتاز بها الإنسان الكامل ، لا الصورة الجميلة ولا القوة ولا نحوها .

ثم أخبر عما حدث من امرأته حينئذ فقال :

(فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم) أى فأقبلت امرأته سارة حين سمعت بإسحاق (كانت في ناحية من البيت تنظر إليهم) وهى تصرخ صرخة عظيمة وضربت بيديها على جبينها وقالت : أنا عجوز عقيم فكيف ألد ؟ وجاء في الآية الأخرى : « قَالَتْ يَا وَيْلَتَا أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا » فأجابوها عما قالت :

(قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم) أى قالوا لها : مثل الذى أخبرناك به قال ربك ، فنحن نخبرك عن الله ، والله قادر على ما تستبعدين ، وهو الحكيم فى فعله ، العليم الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

والخلاصة — إنها استبعدت الولادة لسببين : كبر السن والعقم ، وقد كانت لاتلد فى عنفوان شبابها والآن قد عجزت وأيست ، فأجدرُ بها الآن ألا تلد ، فكأنها قالت : ليتكم دعوتكم دعاء قريبا من الإجابة ، ظنا منها أن ذلك منهم كما يصدر من الضيف من الدعوات الطيبات كما يقول الداعى : أعطاك الله مالا ورزقك ولدا ، فردوا عليها بأن هذا ليس منا بدعاء ، وإنما ذلك قول الله تعالى :

قد تمّ ما أردنا تصنيفه فى تفسير هذا الجزء بمدينة حلوان من أرباض القاهرة كورة الديار المصرية فى اليوم العاشر من شهر ربيع الثانى من سنة خمس وستين وثلاثمائة بعد الألف من هجرة سيد ولد عدنان .

والحمد لله الذى بنعمته تمّ الصالحات ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم .

فهرس

أهم المباحث العامة التي في هذا الجزء

المبحث	الصفحة
القرآن الكريم من عند الله ، لامن عند محمد .	٤
الرد على المشركين في طعنهم في النبوة .	٩
ما ينسب إلى بعض الأولياء من علمهم بشئون الغيب فهو فرية على الله .	١١
إسلام عبد الله بن سلام وحديثه مع قومه اليهود .	١٤
الرد على المشركين في أن القرآن ليس مفترى .	١٥
الوصية بالوالدين .	١٧
حوار بين عليّ وعثمان في أقل مدة الحمل .	١٨
لم يبعث الله نبياً قبل الأربعين إلا ابني الخالة عيسى ويحيى .	١٩
الدعاء الذي كان يعلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه في التشهد .	٢٠
خطبة مروان في المسجد دعاية ليزيد بن معاوية وردّ عبد الرحمن ابن أبي بكر عليه .	٢٣
غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى على الحسن والحسين قلوبين من فضة .	٢٦
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا عصفت الريح يدعو بدعاء خاص .	٣١
استماع الجن للقرآن .	٣٤
لادليل من العقل على عالمي : الملائكة والجن ، بل الدليل من السمع وأخبار الأنبياء .	٣٥

الصفحة	المبحث
٣٧	ورد أن الجن استمعت القرآن مررات كثيرة .
٤١	ضرب القرآن للأمثال .
٤٩	الحرب ترقى الصناعات ، وتوقظ الشعور ، وتزيد عدد الأمم .
٥٠	سيأتي يوم تسمد فيه الأمم بسعادة أعدائها .
٥٢	يعرف أهل الجنة منازلهم فيها كما يعرفون منازلهم في الدنيا .
٥٦	لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً التفت إليها وقال : أنت أحب بلاد الله إليّ ، أنت أحب بلاد الله إليّ .
٥٨	صفة الجنة كما وصفها القرآن .
٦٣	في الحديث : «إني أستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة» .
٦٤	ما كان يقول المنافقون حين نزول آيات الجهاد ؟ .
٧٠	مما لآلة المنافقين لليهود من بنى قرىظة .
٧١	يعرف المنافقون من غيرهم بلحن القول والعدول عن التصريح إلى الإشارة .
٧٢	في الحديث : « ما أمر أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها » .
٧٥	الماضي تبطل الحسنات .
٨١	نتائج صلح الحديبية .
٨٦	من سنن الله أن يسلط بعض عباده على بعض .
٨٧	لله جنود للرحمة ، وجنود للعذاب .
٩٠	بيعة الرضوان — بيعة الشجرة .
٩٢	معاذير بعض القبائل للتخلف عن الجهاد .
٩٩	الأعذار المبيحة للتخلف عن الجهاد .
١٠١	نادى منادى رسول الله للبيعة وهو تحت الشجرة .
١٠٢	أمر عمر بقطع الشجرة التي بويع عندها رسول الله صلى الله عليه وسلم حين رأى الناس يحجون إليها .

المبحث

الصفحة

- ١٠٤ فتح خير ومغانها ليست بشيء إذا قيست إلى ما بعدها .
- ١٠٦ قال النبي صلى الله عليه وسلم : « لأعطين الراية رجلا يحب الله ورسوله » .
- ١٠٧ كتاب الصلح الذي كتب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم .
- ١١١ مدار من الحديث بين سهيل بن عمرو ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم .
- ١١٢ حوار بين أبي بكر وعمر .
- ١١٦ قال عمر : من أصلح سريره أصلح الله علانيته .
- ١٢٤ ما أشده الوفود أمام النبي صلى الله عليه وسلم .
- ١٢٨ رأى الرسول صلى الله عليه وسلم أنفع للمؤمنين من آرائهم لأنفسهم .
- ١٣١ وجوب قتال الفئة الباغية .
- ١٣١ المؤمنون بعضهم إخوة لبعض .
- ١٣٣ النهي عن السخرية والهمز والهمز .
- ١٣٧ من عرض نفسه للتم فلا يلومن إلا نفسه .
- ١٣٨ في الحديث : « إياكم والظن ، فإن الظن أكذب الحديث » .
- ١٤٠ قال علي بن الحسين : إياك والغيبة فإنها إدام كلاب الناس .
- ١٤٠ لا تحرم الغيبة في ستة مواضع .
- ١٤٤ خطبة النبي صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة وهو على راحلته .
- ١٤٦ القرآن علم المؤمنين الأدب في التخاطب .
- ١٤٧ الفرق بين الإسلام والإيمان .
- ١٤٨ مقال النبي صلى الله عليه وسلم للأَنْصار يوم حنين .
- ١٦١ في الحديث : « كاتب الحسنات أمير على كاتب السيئات » .
- ١٧١ الرسول صلى الله عليه وسلم مذكور وليس بمسيطر .
- ١٧٦ أفعال الرياح تخالف ناموس الجاذبية .
- ١٨١ القصص الذي رواه الأصمعي عن أعرابي قابله .
- ١٨٤ بشرى الملائكة لإبراهيم .
- ١٨٥ استبعاد سارة للولادة في هذه السن .